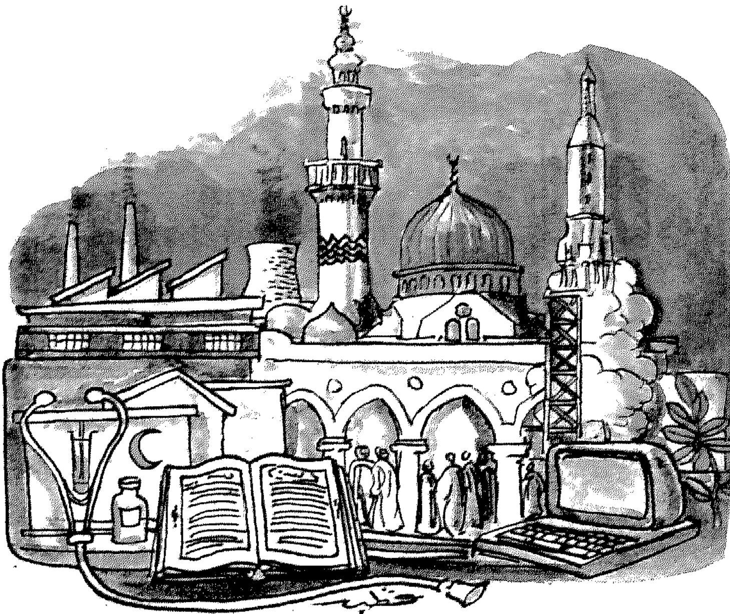
الإمام
محمد أبو زهرة

الدعوة إلى الإسلام

تاريخها في عهد النبي والصحابة والتابعين
والعهود المتلاحقة وما يجب الآن



دار الفكر العربي

الإمام محمد أبو زهرة

الدعوة إلى الإسلام

تاريخها في عهد النبي والصحابة والتابعين والعهود المتلاحقة وما يجب الآن

طبعة جديدة
١٩٩٢

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الإدارة : ١١ شارع جواد حسني
ص . ب ١٣٠ القاهرة – ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٢١٣,٠٩ محمد بن أحمد أبو زهرة، ١٨٩٨ - ١٩٧٤ .
م ح دع الدعوة إلى الإسلام : تاريخها فى عهد النبى والصحابة والتابعين والعهود المتلاحقة ومايجب الآن/ محمد أبو زهرة - ط، جديدة. - القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩١.

٩٦ ص ؛ ٢٤ سم .

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

١- الإسلام - دعوة - تاريخ. أ- العنوان

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت ٨٢٧٨٨١

تعريف بالشيخ الإمام

محمد أبو زهرة

الإمام محمد أبو زهرة غنى عن التعريف، إذ لا يختلف اثنان على أنه كان إمام عصره بلا منازع، ولكن من حقه علينا، ومن حق قارئه، أن نسطر عنه كلمات ولو فى أسطر قليلة تشير إلى نشأة ذلك الإمام، والجو الذى ولد وعاش فيه، والمواقف الشجاعة فى الإصلاح الاجتماعى والإسلامى، ولو أدى الأمر إلى الوقوف ضد اتجاهات السلطان.

هذا الإمام هو : محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد بن عبد الله، المولود فى عام ١٣١٦هـ، فى التاسع والعشرين من شهر مارس عام ١٨٩٨م. فى المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية.

وأسرة أبو زهرة ينتهى نسبها إلى الأشراف، ولكنها لا تدعى ذلك كما يفعل الكثيرون، ممن يرفعون بذلك النسب خسيستهم، وإن كانوا فى واقع حالهم لا يستحقون الرفعة.

– بدأ الشيخ حياته التعليمية فى الكتاب. شأن كل أزهرى فى ذلك الوقت، ثم المدرسة الأولية حيث تعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم انصرف إلى المدارس الراقية، وبها أتم حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضة والجغرافيا، بالإضافة إلى العلوم العربية، وفى سنة ١٩١٣م التحق بالجامع الأحمدى بطنطا حيث ظهر نبوغه وتفوقه على أقرانه مما أثار إعجاب المحيطين به من زملاء ومربين. وفى عام ١٩١٦م دخل الإمام محمد أبو زهرة مدرسة القضاء الشرعى بعد أن اجتاز امتحان مسابقة كان أول المتقدمين فيه، رغم فارق السن، وعدد سنوات الدراسة بينه وبينهم.

– وقد تنقل رحمه الله فى عدة مناصب بين كلية أصول الدين، وكلية الحقوق، وتدرج فى مراتب التدريس، من مدرس إلى أستاذ مساعد، إلى أستاذ ذى كرسى، إلى رئيس قسم الشريعة، إلى أن أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٨م، واختير عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى فبراير عام ١٩٦٢، وهو المجمع الذى يعتبر بديلا لما كان يسمى فى الماضى هيئة كبار العلماء.

يتحدث عن نفسه، يقول:

- اختلطت حياتى بالحلو والمر، وابتدأت حياتى العلمية بدخول المكتب لحفظ القرآن الكريم، وإذا كان النبات قبل أن يستغلظ سوقه يعيش على الحب المتراكب، وقد يرى بالمجهر سورة النبات فى ذلك الحب، فكذلك ينشأ الناشئ منا، وفى حبته الأولى فى الصبا تكمن كل خصائصه فى الكبر، وكنت أشعر وأنا فى المكتب بأمرين ظهرا فى حياتى فيما بعد.

الأمر الأول : اعتزازى بفكرى ونفسى، حتى كان يقال عنى أنى طفل عنيد.

والأمر الثانى : أن نفسى كانت تضيق من السيطرة بغير حق.

وبسبب هذين الأمرين كانت حياة الشيخ أبو زهرة سلسلة من المواقف الشجاعة، يناضل فى سبيل الحق ضد الباطل، ولم يرحل عن دنيانا إلا وقد ترك ثروة* من العلوم الشرعية الإسلامية التى تحيط بكثير من الموضوعات من كل جوانبها. فهو الكنز الذى لاينفد، والنبع الذى لا يزال ينهل منه الظامئون، ولا يضيق بكثرة الناهلين.

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خير ما يجزى عالما عاملا لم يرد إلا العزة والرفعة للإسلام والمسلمين.

الناشر

محمد محمود الخضرى

---

* المؤلفات الكاملة للإمام محمد أبو زهرة موضحة فى آخر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الدعوة إلى الإسلام

١- إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونتوب إليه، ونستغفره من تقصيرنا وسيئاتنا، ونرجو العون منه فيما أقدمنا عليه من قول، ونصلى ونسلم على محمد المبعوث للناس كافة بشيراً ونذيراً، وعلى آله وأصحابه الكرام الذين حملوا الراية من بعده، وقاموا بحق الرسالة، والإعلام بها، حتى عم العلم بها أكثر من يجاورونهم ممن اتصلوا به من الشعوب والأقاليم، رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم، وأثابهم على ما قدموا من بيان للرسالة.

أما بعد، فقد رأى مجمع البحوث الإسلامية أن يكون من بين الموضوعات التى يتدارسها مؤتمره العام لسنة ١٩٧٢ مسألة الدعوة إلى الإسلام، فتكون مبحثا من بحوثه، يتدارسه أعضاؤه، ويتواصون على القيام بحق التبليغ الإسلامى امتداداً للتبليغ المحمدى الذى أمر به منزل الكتاب الكريم على نبيه ومن اتبعه إلى يوم الدين.

وإنا نقدم بعون الله العلي القدير هذا البحث، وقد قسمنا القول فيه إلى عناصر وتمهيد، فيشتمل البحث على :

(أ) تمهيد، نشير فيه إلى نشر الإسلام ابتداء، وكيف كان بعد وفاة صاحب الرسالة.

(ب) وجوب الدعوة الإسلامية ومقامها من التكليفات الشرعية ومدى أمر الله تعالى للأجيال من بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى القيام بالدعوة إلى الإسلام، وليست إلا بيانه للكافة فى الشرق والغرب.

(ج) المنهاج الذى سلكه الحواريون من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم الذين عاينوا وشاهدوا، لأنهم اتبعوا سبيل النبى ﷺ وهو سبيل المؤمنين.

(د) كيف انتشر الإسلام بعد الهداة الأولين، ومن الذين عملوا على نشره والدعوة إليه.

(هـ) الحال فى هذا العصر والمنهج الذى يسلك فى الدعوة إليه.

وإنا إذا أوفينا البحث فى هذه الأمور على قدر طاقتنا نكون قد قمنا بتوفيق الله ببعض ما يجب علينا من العهد الذى أخذه الله تعالى علينا وأكده تعالى« لتبيننه للناس ولاتكتمونه[1]».

---

(١) آل عمران: ١٨٧.

التمهيد

١- إن التبليغ الذى أمر به الله تعالى النبى ﷺ فى قوله تعالى « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[١] » قد حملته أمته من بعده، ولها فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

وإنه إذا كانت الدعوة المحمدية عامة للناس كافة، وأنه لانبى بعده، فإن التبليغ لاينتهى بوفاة صاحب الرسالة، بل إنه يستمر ما دامت السموات والأرض لتحقيقها، ولتعميم العلم بالإسلام، حتى يكون استحقاق الثواب لمن يؤمن، والعذاب على من يكفر، فإن الله تعالى يقول « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[٢] » وقد بعث الرسول الذى هو خاتم النبيين، وعلّم أصحابه، وجعلهم رسلا من قِبَلِه للناس كرسل الحواريين فى عهد عيسى عليه السلام.

لقد ربى النبى ﷺ ذلك الجيل الذى عاصره من الصحابة، وعلم أصحابُه من بعدهم التابعين، وتوارث الناس العلم بالرسالة المحمدية جيلا بعد جيل، وحمل العلماء أمانة التبليغ، كما حمل أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد الرسل أصحاب الشريعة أمانة تبليغ رسالاتهم، وبيان شرائعهم ونشروها بين الناس، ولذلك قال النبى ﷺ :« علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل». لقد كان الله تعالى يبعث نبيين مبينين لشريعة من سبقوهم من الرسل داعين، كالأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى عليه الصلاة والسلام، مثل داود وسليمان وغيرهما من الذين لم يكونوا أصحاب شريعة، ولكن كانوا مطبقين للشريعة، حاكمين على مقتضاها .

فلما كان النبى ﷺ خاتم النبيين، ولا نبي بعده، ولا وحى ينزل على أحد من خلق الله بعده، كان لابد أن يكون من يقوم ببيان الشريعة، وتبليغها للناس، فكانوا هم العلماء، وكانوا كما قال الرسول ﷺ كأنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد الرسل أصحاب الشرائع، فكانوا يحق عليهم بيانها وتطبيقها ونشرها بين الذين خوطبوا بها .

٢- ولقد قام المسلمون الأولون من أصحاب رسول الله ﷺ بحق الدعوة، وخلفهم من بعد ذلك التابعون، وكان من الحكام بعد الراشدين من قام بحق الدعوة، كالحاكم العادل عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه، وكان من العلماء من اتخذ مبدأ الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه منهاجاً من منهاجهم، فالمعتزلة وغيرهم كانوا ممن حمل الدعوة إلى الإسلام والرد على الزنادقة، والمتهجمين على الحقائق الإسلامية.

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) الإسراء . ١٥

وكان المجاهدون الأولون لايجاهدون للغلب وفرض السلطان، بل كان جهادهم ليشقوا الطريق للدعوة الإسلامية، حتى لا تقف محاجزات دونها، كما سن النبى ﷺ، إذ أنه عندما خاطب برسله هرقل، والمقوقس وغيرهما من حكام الأقاليم، كان يريد أن يفتحوا باب الدعوة لتصل إلى شعوبهم، وإلا يفعلوا فعلى هؤلاء الحكام الذين يحاجزون بين الدعوة والشعوب، إثم هذه الشعوب، كما قال النبى ﷺ فى كتابه لهرقل أسلم تسلم، وإلا فعليك إثم الإريسين.

وما كانت الحرب لحمل الشعوب على الإسلام، بل كانت لفتح الطريق لإعلامهم بالإسلام ومبادئه « فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر[1] » وإنه من بعد ذلك يتحمل وزر إنكاره بعد أن يعلم الإسلام من كل وجوهه، ويعرف ما فيه من خير وما فى اتباعه من هداية وإصلاح فإن كفر بعد ذلك فعن بينة. وإذا آمن فقد سلك سواء السبيل ببرهان ربه، وأنقذه الله من الضلال عن بينة.

ولقد كان عمر بن الخطاب يفرض على الولاة الذين يرسلهم إلى الأقاليم أن يقوموا ببيان الإسلام. والتعريف بحقائقه لمن يحكمونهم مسلمين وذميين، فقد كان يقول لولاته «ما أرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، ولكن لتعلموهم أمور دينهم»، وبذلك تتحقق الدعوة الإسلامية، ويقوم أمرها.

وكان من العمال الأتقياء، من يقوم بالدعوة، ويبينها تمكينا للإسلام، ثم كان أمر آخر، لا نذكره على أنه كان مقصوداً من الفتوح الإسلامية، بل نذكره على أنه جاء تابعا لها، ولغلب الحق على الباطل.

ذلك هو ما قرره علماء الاجتماع، وعلى رأسهم أول عالم اجتماعى «ابن خلدون» فلقد قرروا أن الضعيف مأخوذ دائما بتقليد القوى، واتباعه، ذلك أن القوة فى ذاتها دعوة إلى اتباع فضائل من يتحلى بها، ولأن ضعف القلوب يجعله يقتبس من أسباب القوة عند الغالب.

وإن الاحتكاك فى الحروب، يجعل الأخلاق والآداب تسرى بين الشعوب وتعلو الأخلاق القوية على الأخلاق الضعيفة، ويفيض الأعلى على الأدنى كشأن طبائع الأشياء فى الماديات والمعنويات على سواء.

فكانت الحروب معلّمة بالإسلام، ودعوة إليه من غير إكراه، لقد كان شأن المسلمين الأولين فى غزواتهم أن يخيّروا من يحاربونهم بين أمور ثلاثة : أن يسلموا ويبينوا لهم الإسلام، أو يعقدوا معهم العهد، ليأمن كل فريق صاحبه، أو الحرب.

---

(١) الكهف : ٢٩

وإن ذلك يقتضى حتما أن يتعرفوا الإسلام وما اشتمل عليه، ويقابلوا بينه وبين ما عندهم وإنهم بلا ريب سيجدون فيه علواً على ما عندهم، وفى وسط هذا تسرى المبادئ الإسلامية إلى الشعوب، كما يسرى النور فى الظلام، ويزيل كثافة الظلمات.

٣- وإن الأخلاق الإسلامية بجوار قوة المسلمين الحربية والمعنوية، وعدالة الغالب مع المغلوب، كل هذا يكون من شأنه أن يؤثر فى النفس، ويفيض منها ينبوع الخير، وتتفجر من القلوب التى كانت كالحجارة أو أشد قسوة، ينابيع الإيمان القوى العامل.

إن معاملة المغلوبين الحسنة من شأنها أن تفتح قلوب المغلوبين إلى الهداية.

وقد كان الغزاة الأولون فى قلوبهم رحمة ورأفة، وعدالة ووفاء وأخلاق العزة والكرامة التى لا تكذب ولاتنافق، ولاتهن ولاتذل، وإن ذلك؛ بلاشك من شأنه أن يدنى القلوب، ويؤلفها، وإذا دنت القلوب من أهل الإيمان سرى إليها، ولاتقف محاجزات بينها وبينه.

إنه ثبت نفسياً أن التعصب لدين من الأديان ليس منشؤه قوة الإيمان به إنما منشؤه ضعف فى النفوس، وانحياز فكرى، وعدم النظر إلى الأمر من كل نواحيه، ولاشك أنه إذا دنت القلوب بعد اغترابها، ولانت بعد عصبيتها؛ تركت الانحياز إلى الائتلاف، والابتعاد إلى الاقتراب، وعندئذ يدخل نور الإيمان، وتتفتح أمامه المغاليق.

وإن الأخلاق الإسلامية تؤلف ولاتنفر، وتقرب ولاتبعد، فلقد أوصى النبى ﷺ بحسن المعاملة، وروى فى بعض الآثار أن الدين المعاملة.

ولقد أوصى الله تعالى بحسن الجوار، وقال النبى ﷺ : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وحقوق الجار عظيمة من شأنها أن تربط بينهما بالمودة، والحسنى، وقد قال ﷺ: «والله لايؤمن، والله لايؤمن، والله لايؤمن، قالها ثلاثاً، قالوا : من يارسول الله؟ قال : ذلك الذى لايأمن جاره بوائقه».

ولقد كان لعبد الله بن عباس جار يهودى، فكان إذا أحضر لأولاده فاكهة، أعطى منها لأولاد جاره، وكان إذا ذبح شاة أهدى إلى الجار اليهودى منها.

ولقد نص النبى ﷺ على الإحسان إلى الجار المشرك، فروى عنه أنه ﷺ قسم الجيران إلى ثلاثة : جار مسلم ذو رحم له حق الجوار وحق الرحم، وحق الإسلام، وجار مسلم، له حق الجوار وحق الإسلام، وجار مشرك له حق الجوار.

ومن هذه الأخلاق التى أوصى بها النبى ﷺ فيها بحسن العشرة، وحسن المعاملة، دخل الإسلام إلى القلوب، وقرب النفوس.

٤- وإن العدالة الإسلامية فى الشعوب التى حكمها كانت مرطبة لنفوس المغلوبين مدنية لقلوبهم، فالله تعالى يقول : «ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، أعدلوا هو أقرب للتقوى»[(١)] .

والنبى ﷺ أوصى بالذميين، وقال : « من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته ».

ولقد كان الخلفاء الراشدون حريصين على إكرام الذميين، والعدالة فيهم، وحققوا القاعدة الفقهية التى تقول «لهم مالنا، وعليهم ماعلينا» من غير وكس ولاشطط.

وإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وجزاه الله عن الإسلام خيراً، كان يعد المعاملة الطيبة من الولاة للذميين دليلا على عدلهم، فكان إذا لقى الوفود من الأقاليم الإسلامية فى موسم الحج كان أول أمر يسأل عنه، معاملتهم الذميين، فإذا تبين له أنهم يعدلون معهم عرف أنهم عدول فى ذوات أنفسهم ومع رعيتهم على اختلاف نحلها، فالعدل قربة وتقوى.

وإن المعاملة العادلة تجذب القلوب، وتدنيها، فإذا علموا أنها من الدين الجديد فتحت قلوبهم له، وصغت إليه واستجابت له.

ولنقص عليك قصة وقعت لشاب قبطى، وتصور مدى أثرها الدينى فى نفوس شعب مصر.

تسابق شاب مصرى مع ابن عمرو بن العاص، فسبقه المصرى، فعلاه ابن عمرو بالسوط يضربه، ويقول له: أتسبق ابن الأكرمين، فنشط الشاب المصرى إلى أمير المؤمنين، وشكا إليه الظلم الذى وقع به، فأبقاه عمر بالمدينة، وأرسل إلى عمرو يستدعيه هو وابنه، فقدما إلى المدينة.

---
(١) المائدة : ٨

واطمأن عمر العادل إلى صدق الدعوى، وأحضر الشاب المصرى، وأعطاه السوط، وقال : اضرب من ضربك، فأخذ يضربه، وكلما استأنى قال له : زد ابن الأكرمين. حتى اشتفى الشاب المصرى القبطى، ثم نحى أمير المؤمنين عمامة عمرو عن رأسه، وقال للشاب اضرب على صلعة عمرو، فباسمه ضربك، فقال الشاب : لقد ضربت من ضربنى يا أمير المؤمنين. فالتفت الفاروق إلى عمرو، وقال له تلك الكلمة النورانية الخالدة التى يترنم بها المسلمون وغير المسلمين إلى اليوم، قال : « منذ كم يا عمرو تعبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ».

لاشك أن هذه الحادثة سرت أخبارها بين المصريين، ووازنوا بهذا بين حكم الرومان الذى كان يجعلهم عبيداً؛ ولو كانوا نصارى مثلهم؛ وحكم الإسلام العادل الذى يجعلهم أحراراً، أو يحترم حريتهم الفطرية، ولو كان المعتدى أميراً أو ابن أمير، إن ذلك وحده دعوة عملية نافذة إلى الصدور، فلا غرابة أن تدخل مصر بعد ذلك فى الإسلام أفواجاً، طوعاً لاكرهاً وبرغبة لابرهبة.

ولعلهم رأوا عمر بن الخطاب يعيد إقامة حد الشرب على ابنه خشية أن يكون عمرو بن العاص قد حاباه فى إقامته بمصر، وقد رأوا ذلك رأى العيان وأى عدل أعلى من هذا، وهكذا نرى أن العدل فى ذاته دعاية قوية إلى الحق، لاتوجد دعاية أقوى منه بياناً، وأشد برهاناً.

٥- وإن العدالة حتى فى الحرب، والسيوف مشتجرة كانت سائدة واضحة. يحكى تاريخ عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل، أن أهل صفد من أعمال سمرقند شكوا إلى الحاكم العادل عمر هذا أن قتيبة بن مسلم دخل ديارهم فاتحاً، من غير أن يخيرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال، كما هو الشأن فى الحروب الإسلامية.

شكوا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فأرسل إلى القاضى يأمره بأن يجلس ويحقق الشكوى، ويجمع بين الشاكين والقائد العظيم قتيبة بن مسلم، فسمع القاضى إلى الشكاة، وإلى مقالة قتيبة، فتبين له صدق الشكوى، فأمر الجند الفاتح أن يخرج من ديار سمرقند، ويعود إلى ثكناته قبل الفتح، ثم يعود القائد إلى تخييرهم بين الإسلام والعهد والقتال.

لاشك أنهم يختارون العهد ولايختارون القتال، والكثيرون منهم يدخلون فى الإسلام، سواء أرضى أولياء الأمر فيهم أم لم يرضوا.

إن الإسلام كان دين العدل فى وسط عنجهية الحكم الطاغى، والظلم المبين، وكان فيه إنقاذ الرعية من الولاة الظالمين، والظلمة الآثمين.

ولاشك أنهم عرفوا أن الإسلام فى عهوده التى يعقدها مع الحكام ملوكا كانوا أو غير ملوك، كان يشترط عليهم العدل فى رعاياهم، فإن لم يعدلوا فقد نكثوا فى أيمانهم ورد إليهم عهدهم، وقام المسلمون بقتالهم لإبعادهم عن ظلم الرعية، ذلك أن الظلم حرام فى الإسلام، جاء بتحريمه القرآن ووصايا النبى ﷺ، وكل شرط يحل حراما أو يحرم حلالا فهو رد على من اشترطه كما قال ﷺ : «المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراما أو حرم حلالا» وإن الظلم حرام بحكم الشرع، وبحكم العقل.

الحال الآن

٦- حالت الأحوال، وتغيرت الأمور، فصار ما يظهر من المؤمنين يخالف مايدعو إليه دينهم، وصار بأسهم بينهم شديداً، والعدل الذى كان داعيتهم اختفى فيما بينهم، فلم يعدلوا فى أنفسهم، ولم يكن العدل أساس علاقتهم بغيرهم، إذ فسد حكامهم، وصار الطغيان هو الذى يسيطر عليهم، ويزعمون أن ذلك حكم الإسلام، واضطربت الأمور، وشغرت الأمة من أن ترى حاكما يحق الحق، ويزهق الباطل، ويعلى معالى الأمور، وحَكّمَ الهوى والشهوة واستمر الظلم فيما بينهم، حتى ضعفوا وهانوا، وبعد أن كانوا الأقوياء الذين يطلب منهم العدل فى أنفسهم وغيرهم صاروا الضعفاء المستجْدين الذين يستجْدون العدل من غيرهم لأن العدل فضيلة القوى، لم يعودوا أقوياء، بل صاروا المستضعفين الذين استخذوا وذلوا، وصار غيرهم يتصرف فى أمورهم، ولا رأى لهم، وإن استشاروهم ظاهراً، فالأمور يبت فيها من ورائهم باطناً، ولاحول ولاقوة إلا بالله تعالى، وهو مصرف الأمور ومقلب القلوب.

ولقد كان التجار المؤمنون يحسبون أن عليهم واجب التبليغ فبلّغوا مع فساد الحكام، وإن شرق أفريقيا كان تجار الحضارمة فى وسط ظلم الحكام وفساد بيوت المال، يقومون بالدعوة فيه حتى فشا الإسلام فى الصومال وزيلع وبرر وصوصع وإيرتريا والحبشة، وكانوا الغالبية الساحقة فيها، وإن لم يكن لهم بطش أمام حكامها غير المسلمين المؤيدين من المسيحية العالية التى لاتتمثل فيها روح السيد المسيح عليه السلام.

وأخلاق المسلمين الظاهرة تغيُّرت، فلم يكونوا فى هذا الزمان صورة للاستقامة وقوة الإيمان، واستشعار العزة، بل خنعوا وهانوا فى أنفسهم، فهانوا فى نظر غيرهم، ورضوا بالأمور القائمة، وإن كانت تفرض الذل عليهم، وإذا دعاهم داع إلى العزة استهانوا بدعوته، أو وضعوا أصابعهم فى آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وقاوموا وعاندوه، ورضوا أن يكونوا قوما بوراً، وأن يكونوا أذلة للكافرين المتحكمين، والمتغطرسين على المؤمنين، وغيروا وبدلوا فى معانى كتاب الله تعالى الخالد الذى وصف الأولين من المؤمنين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، فبدلوها بأن صاروا أعزة على ضعفائهم أذلة لغيرهم، وبعد أن قال الله فى وصف المؤمنين الصادقين أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، صاروا خانعين للكفار أشداء على أنفسهم، يسومون إخوانهم العسف والهوان، ويطأطئون الروس هلعاً وخوفاً أمام غيرهم.

ولقد حكمت الأهواء والشهوات الملوك وسرت إلى الرعية، وهذا وهن من الأمم، ولقد قال ﷺ فيما روته الصحاح:

«تتداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله تعالى من قلوب عدوكم المهابة منكم، وليرزقنكم الوهن، قالوا: وما الوهن يارسول الله، قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

وهانحن أولاء الآن كذلك فى هذا الزمان، غلبت على حكامنا الأهواء والشهوات، وسرت إلى من حولهم الذين يلفون لفهم، ويدورون حولهم، ويلقفون من مائدتهم ما يبقى منهم، غير ملاحظين ديناً ولاخلقاً، ولامروءة ولاكرامة.

وقد يقول قائل: هل صارت الأمة كلها كذلك، وقد قال النبى ﷺ: «الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة» ونقول فى الإجابة عن ذلك، إنا نرجو أن نكون من أمة واحدة التى قال فيها عليه الصلاة والسلام ذلك.

ولكن نقول إن هذا الأمر البارز الظاهر، وهو تحكم الأهواء والشهوات، والدعوة إلى اللهو والعبث، وسيطرة الترف، والله تعالى يقول: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول، فدمرناها تدميراً[1]».

---

(١) الإسراء: ١٦

إن فى المسلمين بحمد الله صالحين مؤمنين، ولكن غمرهم الذين أفسدوا المجتمع الإسلامى، وجعلوه مجتمعاً لاهياً لاعباً، فإن لم يكن كذلك كان خانعاً مستسلماً، لايغير ولايبدل، وهو يرى التغيير فى أحكام الله تعالى والتبديل فيها، ولايعلن استنكاره، وإن استنكر فبقلبه، وهو أضعف الإيمان. وبذلك صار المسلمون قوماً بوراً، إذ رأوا الباطل، ولم يعلنوا استنكاره، والظلم ولم يقاوموه، والنبى ﷺ يقول : « لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدى الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله تعالى قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلايستجاب لكم» ولقد قال ﷺ « لايسأل العامة ظلم الخاصة حتى يروا الظلم فلا يغيروه ».

نحن نسلم أن المفسدين ليسوا الكثرة، بل ليسوا فى أنفسهم كثيرين، ولكنهم الذين سيطروا على الرأى العام، وشكلوا المجتمع بشكلهم.

وبذلك ضعف المسلمون عن الدعوة إلى الله تعالى والتبليغ الذى حملوه عن النبى ﷺ، فضاعت الدعوة بضياعهم.

٧- هانت الدعوة، ليس عند عامة المسلمين فقط، بل إننا رأينا من العلماء من يزعم أن التبليغ قد تم، وأن غير المسلمين عليهم أن يتعرفوا الإسلام من غير أن نعرفهم، وأنهم مسئولون عن جهلهم بحقائق الإسلام، ولسنا مسئولين عن تعريفهم به، مادام الإسلام قد أعلن ابتداء، وظهر أمره فى الوجود، ولو كان قد ذكر عندهم بغير حقائقه، وبغير أصوله، فعليهم أن يبحثوا، وليس علينا أن نعلمهم بعد الإعلان، ونسوا قول على كرم الله تعالى وجهه: «لايسأل الجهلاء لم لم يتعلموا حتى يسأل العلماء لم لم يعلموا» ولكن تقاصرت الهمم، حتى وصل القصور إلى من تجب عليهم الدعوة.

لقد أهملنا الدعوة والتعريف بالإسلام حتى بين المسلمين، إن فى أطراف البلاد الإسلامية، من لم يعرف من الإسلام إلا الشهادة، والصلاة على انحراف فى أدائها، ففيهم من يجهلون أحكام الزواج ما يحل منها، ومايحرم، ففى أطراف أندونسيا من يبيحون لأنفسهم عن جهل زواج الوثنية بالمسلم وزواج المسلمة بغير المسلم كتابياً أو وثنيا، ولاتقوم جماعة أو آحاد، بتعليمهم مبادئ الإسلام فى تكوين الأسرة، وما يحل فيها، ومايحرم.

وهكذا كان التقاطع، والتدابر من أسباب جهل المسلمين بدينهم فضلا عن أن يوفروا أحكامه لغيرهم، ويبلغوا رسالة نبيهم فى الآفاق.

ولكن مع ذلك استمر الإسلام ينتشر، لأنه فى ذاته حقائق تدعو بذاتها، وفيها برهان صدقها، ودليل العرفان بحقها.

وإن الرجل يقرأ فى التراجم الشائهة، فيلمس فيها النور وسط ظلمات التشويه فيؤمن، مع العوائق التى تحول بينه وبين الإيمان من أحوال المسلمين الظاهرة.

إن المسلمين قد شاعت فيهم عادات وأخلاق قد تكون حجة على الإسلام، وتقف محاجزات بينه وبين من يلتمس الحق فيه، وهو مع ذلك لايزال ينتشر بقرآنه وحقائقه، وسنة نبيه ﷺ، ولا يزال بعض المفكرين يطلبه مع هذا الركام الذى ارتكس فيه المسلمون.

وإننا نجد التبشير النصرانى يحاول أن ينشر النصرانية بين المسلمين جاهدا، ولكنه يرتد خاسئاً وهو حسير، من حيث العقائد الإسلامية والأحكام العملية التى اشتمل عليها.

ولكنه يجئ إلى النفوس التى حلها الهوى، وأفسدتها الشهوة، واستولى عليها تقليد أقوياء هنا، فيحاول أن يخرجها من العمل بحقائق الإسلام، وأحكامها، فيظن الظنون فيما جاء به القرآن، وبذلك نبتت فيه داعية الخروج على الأحكام الإسلامية، فنبتت داعية الدعاة إلى الربا بزعم أن الزمن يطلب التحلل من أحكام الله تعالى القاطعة، وداعية تقليد النصارى فى الطلاق وتعدد الزوجات، وغير ذلك مما بدت أضراره عند النصارى وهو سلامة للمؤمنين، والأسرة الإسلامية أقوى الأسر فى العالم تماسكا، وأقواها نظاما، ولكن هكذا كانت الآفة فى النفوس، ولم تكن فى الإسلام.

ولقد اجتمع مؤتمر فى القدس من نحو بضع عشرات من السنين فقيل لكبيرهم إن النفقات على التبشير كبيرة، ولكن لانجد من يخرجون من الإسلام إلى النصرانية، فذكر أن المبشرين لم ينجحوا فى إدخال المسلمين فى النصرانية، ولكنهم نجحوا فى تهوين الحقائق الإسلامية فى بعض المسلمين، فهل آن أن نعتبر، وندفع الشر، ونحصن أنفسنا منه، وهل آن لنا أن نعرِّف الناس بديننا، والعالم فى حاجة إليه، لأنه الدين الذى يؤمن بالله والرسول، والعقل والعلم، وإنه لابد أن يكون ذلك ولو بعد حين.

وجوب الدعوة بحكم تكليفى

٨- إنه من مكرور القول أن نقول إن الإسلام دين الكافة، فإن رسول الله محمداً ﷺ أرسل إلى الناس كافة كما قال تعالى « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً[١] »، وكما قال تعالى « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »[٢]

ولقد قال رسول الله ﷺ، «كل نبى بعث إلى قومه وإنما بعثت للأحمر والأسود» فبمقتضى الأثر وتلك الآيات كان الإسلام دين الكافة، والناس جميعاً مطالبون بالاستجابة لما جاء به النبى ﷺ، وسجله القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه فى محكم آياته.

وإنه لانبى بعد النبى ﷺ فهو خاتم النبيين، وقد قال تعالى فى ذلك « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين» [٣] .

وعلى ذلك يكون الإسلام دين الأجيال، فهو دين الجيل الذى بعث فيه محمد ﷺ، ودين الأجيال من بعده، حتى يوم الدين.

وإنه لاتكليف من غير إعلام، ولاثواب ولاعقاب من غير علم بالرسالة ودعوة إليها، فإذا كان الإسلام ديناً عاماً، وديناً خالداً يخاطب الأجيال كلها، فلا بد من معلمين داعين، ولا بد من دعوة دينية مستمرة متجددة يتنقل فيها بين البشر، ليتحقق العلم بهذا الدين الحنيف الذى هو دين الله كما قال تعالت كلماته : « إن الدين عند الله الإسلام » [٤].

وقد تولى النبى ﷺ الدعوة بنفسه، وكانت دعوته إلى التوحيد وما أمر الله تعالى به، وما نهى عنه، بتلاوة القرآن بين ظهرانى المشركين وبيان أحكامه للمؤمنين، كما منَّ الله تعالى بذلك عليهم؛ إذ يقول سبحانه وتعالى :« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم »[٥] .

---

(١) سبأ : ٢٨ (٢) الأعراف : ١٥٨ (٣) الأحزاب : ٤٠
(٤) آل عمران : ١٩ (٥) الجمعة : ٢، ٣

وكانت دعوته لمن يلاقيهم من الأقوام آحاداً وجماعات، وكان يرسل جماعات من أصحابه الذين علموا علم الإسلام، وفقهوا أحكامه إلى الأقوام يهدونهم ويعلمونهم، ومنهم من كان يطلب فقهاء فى الإسلام ليعلموهم فكان النبى ﷺ يرسل، ومن الأعراب من كان يغدر بهم، وينافق فى دعوتهم إلى التفقه، وهم يبيتون الشر، كما قتلوا غدراً ستة من المؤمنين الصادقين، وكما قتلوا سبعين قتلة فاجرة، ولكن النبى ﷺ، كان يريد نشر الدعوة، وما كان يعلم ماتكنه القلوب، ولكنه كان يريدهم أنصاراً كالحواريين، كما قال تعالى: « يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله، فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة »(١).

ولما سيطر النبى ﷺ على البلاد العربية، وصارت كلمة الله تعالى هى العليا كان يرسل لمن لم يدخل فى الإسلام ممن أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون من يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم وقد أرسل إلى جزء من اليمن أبا موسى الأشعرى، ومعاذ بن جبل دعاة وهداة، وأرسل فى الجزء الثانى خالد بن الوليد، ولكن لم يستجيبوا له، فأرسل إليهم على بن أبى طالب فدعاهم، ثم أمهم من بعد دعوته إلى الصلاة.

قام النبى ﷺ بالتبليغ الكامل استجابة لأمر الله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس »(٢).

ولم يكتف النبى ﷺ فى تبليغه رسالة ربه بالرسل يرسلها إلى الأقاليم، قاصيها ودانيها، سهلها ووعرها، نجدها وسهلها، بل تجاوز فى تبليغه إلى غير العرب، فأرسل إلى هرقل ملك الرومان يدعوه إلى الإسلام، وجاء فى كتابه ..

« من محمد رسول الله إلى هرقل ملك الروم ...

إنى أدعوك بدعاية الله، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، وإن لم تفعل فإن عليك إثم اليريسين، « يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »(٣).

---

(١) الصف : ١٤ (٢) المائدة : ٦٧ (٣) آل عمران : ٦٤

وأرسل مثل ذلك إلى المقوقس عظيم مصر، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى كسرى فارس، وغير هؤلاء، ومنهم مَنْ ردَّ رداً جميلا، وإن لم يستجب لدعوة الحق، ومنهم من قبح رده، وأخذته العزة بالإثم، وهو كسرى، وقد مزق الله ملكه، إذ مزق كتاب النبى ﷺ ، وبعث من يقتل النبى ﷺ فقتلته رعيته.

وهكذا نجد النبى ﷺ ، قام بحق الدعوة، ودعا بالحكمة لتبليغ رسالة ربه كما قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن »(١).

وكما قال تعالى : « وادع إلى ربك ولاتكونن من المشركين»(٢) وكما قال تعالى : «وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم »(٣).

وإن الدعوة إلى الله هى عمل الأنبياء، كما قال تعالى: «يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »(٤).

وهكذا كانت دعوة النبى ﷺ ماضية قائمة، كان يدعو بنفسه، وبرسله وكتبه حتى بلغ رسالة ربه، وأودع أمانة الدعوة من بعده الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين.

التكليف لمن بعده :

٩- لقد خاطب النبى ﷺ بدعوة التوحيد من عاصروه من العرب ومن جاورهم، وما كان من شأن دين تطالب به الأجيال كلها فى مشارق الأرض ومغاربها، أن يترك مَنْ بَعْدَهُ فى عماء من أمره، ولايعرفون شيئا عن العقيدة التى دعا إليها ذلك الدين، بل لايترك محمد ﷺ، الأمر من بعده من غير تكليف لمن اتبعوه، واهتدوا بهديه أن يقوموا بحق الدعوة ونشرها، لأنه لايمكن أن يكون المخاطبون بهذا الدين، وهم الإنسانية كلها من بعده من غير هاد يدعو، ولامرشد يبين قياساً على قوله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(٥) ، وقوله تعالى: «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »(٦)، فالنذير المحذر، والبشير المبشر، لابد من وجودهما فى كل عصر.

---

(١) النحل : ٢٥ (٢) القصص : ٨٧ (٣) الحج : ٦٧

(٤) الأحزاب : ٤٥، ٤٦ (٥) الأسراء : ١٥ (٦) فاطر : ٢٤

وأولئك يقومون مقام الأنبياء فى بنى إسرائيل، كما أشار إلى ذلك قول النبى ﷺ فى قوله . « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل ».

إن الله أرحم بعباده من أن يترك الناس من بعد رسوله خاتم النبيين بوراً لاهادى يهديهم ولا داعى للحق يدعوهم إليه، والعقول وحدها لاتكفى للهداية، وقد ضلت العقول وتاهت الأفهام تحت لجاجة الأهواء والشهوات، وعندئذ يتخذ الناس إلههم هواهم.

لذلك كان تكليف النبى تبليغ دعوته تكليفاً لأمته، وقد صرحت بذلك الآيات البينات من كتاب الله تعالى، فقد قال تعالت كلماته : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »[1].

وقد دلت هذه الآية على أمور ثلاثة :

أولها – أن دعوة المؤمنين إلى الله من اتباع النبى ﷺ، وأنه من تخاذل عن الدعوة لايعد تابعاً للنبى ﷺ .

ثانيها – أن تكليف النبى ﷺ تبليغ رسالة ربه تكليف لأمته، لايتخلى عنه مؤمن ولايتركه أمين .

ثالثها – أن يكون الداعى له بصر بالأمور، يأتيها من طرقها المسلوكة فى رفق، لينا فى دعوته، يأتى الأمور من مصادرها ومواردها مؤمنا بها على بينة من أمرها، لا تأخذه فى الحق هوادة، وليس للباطل عنده إرادة .

وإن الآية الكريمة فى جملتها تدل على أن الإيمان وحده لايكفى فى اتباع النبى ﷺ بل لابد لكمال الاتباع من الدعوة، بل عليه لأجل الاتباع أن يسلك سبيله فى الدعوة إلى الله، وهو الهادى إلى سواء السبيل، فمن اهتدى من بعد البيان فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما الله يريد ظلما للعباد.

وإن الله تعالى جعل المسلمين شهداء على الناس، وجعل الرسول شاهداً عليهم، وشهادتهم على الناس تقتضى دعوتهم إلى الحق، وشهودهم لحالهم فى إيمانهم وكفرهم، والرسول شهيد عليهم فى أنهم بيَّنوا شريعته، ووضحوا رسالته للناس، وقد صرح الله سبحانه وتعالى بهذه الشهادة القائمة المستمرة فقال تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم، وما جعل عليكم فى الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس»[2] وقال تعالى :

---

(١) يوسف : ١٠٨ . (٢) الحج . ٨٧ .

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً»[1] والمعنى وعلم الحقيقة عند الله أن الله جعل أمة محمد ﷺ هى الأمة المثلى، لأن الوسط معناه الأمثل، وكانت تلك المثالية بأن يكونوا شهداء على الناس يبينون لهم الحق والإيمان، والرسول ﷺ شهيد بأن مايبلغونه هو الحق إن استقاموا على الطريقة.

١٠ - والنصوص قد وردت صريحة مطالبة الأمة بالتبليغ كل على مقدار علمه وطاقته فى التوجيه والإرشاد:

(أ) أن الله تعالى حرض المؤمنين على أن يجيئوا إلى النبى ﷺ، ولمن يخلفه فى أمر أمته، ولمن ينصب نفسه للهداية والدعوة، يجيئون إلى هؤلاء ليعرفوا حقائق الدين، وليتفهموها ويعودوا إلى أقوامهم يعلمونهم ما تعلموا، فقال تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون[2]»

(ب) وإن الله تعالى أمر بالهجرة فى سبيله، دعاة إلى الحق هداة مرشدين يدعون إلى سبيل الرشاد، فقد قال تعالى فى فضل من يهاجر فى سبيل الله تعالى داعياً إلى دين الله «ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيما»[3]

فالهجرة كما يبدو من ظاهر الآية هى الفرار من ظلم الشرك، وتتضمن أيضاً إشارتها الهجرة فى سبيل الحق والدعوة إليه.

(جـ) ومن الدعوة إلى الله تعالى قوله جل شأنه : موجباً لها : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون * ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم»[4]

وإن هذه الآية دلت على أمور ثلاثة :

أولها - وجوب الدعوة إلى الخير، وأى خير أعظم من الدعوة إلى الإسلام، إنه الخير، وهو دين الله تعالى، وهو الحق الذى فيه إصلاح البشر فى معاشهم ومعادهم.

ثانيها - أنه بعد الدعوة إلى الخير يكون العمل على إيجاد جماعة فاضلة بين المسلمين، ترى المعروف فتؤمن به وتدعو إليه، وترى المنكر فتنهى عنه، حتى لايسود الجماعة

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) التوبة : ١٢٢
(٣) النساء : ١٠٠. (٤) آل عمران : ١٠٤و ١٠٥

إلا الخير ، ويختفى من بينها الشر، فيموت فى مكمنه ، ولايرى النور ، فيذبل ويختفى فى الظلام.

ثالثا – أن السكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى إلى سيادة الشر فى الجماعة، وإذا ساد الشر، تحكمت الأهواء والشهوات، وعندئذ يكون التفرق، ويركب كل امرئ متن هواه، فتتفرق الأمة بعد اجتماعها، وبعد أن جاءتها البينات.

(د) وإن الدعوة إلى الإسلام أخذ بمبدأ الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فلا يوجد معروف تدركه العقول، وتقر به الأفهام أكثر من الدعوة إلى الوحدانية الكاملة، وحدانية الله تعالى فى ذاته وصفاته، وأنه الخالق لكل شئ، وأنه المعبود بحق وحده، وعبادة غيره هى الضلال البعيد، وتحكم الهوى والأوهام فى العقول .

يقول سبحانه وتعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم »(١).

(هـ) ولقد ندد الله تعالى بالذين يكتمون العلم، وخصوصاً علم الكتاب وما أنزله الله تعالى، والله تعالى يقول : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون * إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا، فأولئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم »(٢).

ولاشك أن الذين لايدعون بدعاية الله يكتمون الحق الذى أنزله الله سبحانه وتعالى، ليعم هذا الوجود الإعلام به.

(و) إن من المقررات الشرعية فى الدلالات القرانية أن كل أمر للنبى ﷺ، هو أمر لأمته، إلا أن يقوم الدليل على تخصيص التكليف بالنبى ﷺ، وقد جاء الأمر بالتبليغ موجهاً للنبى، وبالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان هذا أمراً للناس كافة للقيام بذلك الواجب المقدس، إذ لادليل على أنه خاص بالنبى بل قام الدليل على عموم التكليف فيما تلونا وفيما بينا، وفى الأمر لنا بأن نتخذ رسول الله تعالى أسوة حسنة نتبعه فى هديه، وفى أمره ونهيه، ولقد قال تعالى: «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرا(٣)»

وإنه بمقتضى هذه الأسوة التي تجب على المؤمنين يكون من الحق عليهم أن يقتدوا به فى هديه ودعائه إلى الإيمان، وإعلان ما أعلنه، واتباعه فى كل ما اتجه إليه من وسائل الدعوة إلى الله ورسوله .

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) البقرة : ١٥٩، ١٦٠ (٣) الأحزاب : ٢١

(ز) وإن الله وصف المؤمنين بأنه استخلفهم فى الأرض، أى جعلهم خلفاء له ولأنبيائه، وإن مقتضى هذه الخلافة عن الأنبياء أن يقوموا بما كانوا يقومون به من واجب التبليغ والدعوة إلى الله تعالى .

وقد قال تعالت كلماته : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لايشركون بى شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون»[1] .

وإن هذا الأمر يدل على حقيقتين ثابتتين استلزمتهما حقيقة الإيمان والعمل الصالح:

الأولى – أن المؤمنين الصادقين الذين يقومون بالعمل الصالح هم خلفاء الله فى الأرض، وخلفاء النبى ذى العزم من الرسل فى الدعوة إلى الله تعالى، وألا يشركوا به شيئاً حجراً أو إنساناً، فالمؤمنون برسالة محمد ﷺ خلفاؤه فى الدعوة إلى دينه الحكيم ، وبث حكمته وأقواله فى قلوب البشر الذين لم تبلغهم رسالته، ولايعرفون حقيقة الدين الذى يدعون إليه فذلك حق عليهم .

الثانية – أن الله تعالى وعد المؤمنين الصادقين بأن يمكّن لهم دينهم الذى ارتضوه، وارتضاه الله تعالى لهم، وليس ذلك التمكين بغير جهد مبذول، ولابغير دعوة مستمرة دائبة لاتفتر ولاتسكن، إنما هو العمل المستمر فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وإن ذلك فوق أنه أداء واجب، هو السبيل لسيادة الأمن، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً، وأن يكونوا فى الأرض سادة لاتتداعى عليهم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها، أو تداعى الذئاب عليهم لتفرض عليهم الذلة، ويستعبدوا فى أرضهم، وتستغل غلاتهم.

وإن الحروب التى شنها النبى ﷺ حماية للحوزة، وتمكيناً للدعوة، كان يبدأ فيها بالدعوة للإسلام، فكان ﷺ يأمر جنده الذين يرسلهم إلى الأقاليم بأن يدعوهم أولا إلى الإسلام، فإن أسلموا فإخوانهم في الدين، يعلمونهم أحكامه، ويبينون لهم هديه، وإن لم يسلموا عرضوا عليهم العهد، فإن عاهدوا على العدل فى الرعية، كان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعليهم فإن لم يفعلوا كان القتال، ولايقاتلونهم، حتى يبدءوا هم، ويقتلوا قتيلا، فيريهم القائد المسلم بأمر محمد أن يقول لهم أما كان خيراً من ذلك أن تقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وكما وردت بالتكليف بالدعوة نصوص قرآنية، فقد وردت أيضاً أحاديث داعية إلى التبليغ، بأن تبلغ ما أمر به النبي ﷺ، وما أعلمه من حقائق إسلامية:

(١) النور : ٥٥

(أ) منها أنه ﷺ أمر من شهده من المؤمنين أن يبلغ من غاب عنه، سواء أكان من أهل جيله أم ممن يجيئون بعده من الأجيال، لافرق بين قريب منه، وبعيد عنه، فلقد جاء في خطبته في حجة الوداع، وهو ينادي الأجيال في عرفات ببيان موجز للأحكام الإسلامية « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب» فتلك دعوة عامة لمن شهد من المؤمنين أن يعلم من غاب منهم الناس، والمشاهدة التي توجب الإعلام تشمل من حضر النبي ﷺ، وأشرقت عليه أنواره بلقائه بالحسّ، ومن علم علم القرآن، وبعلمه قد صارت النبوة بين جنبيه، فإنه قد شاهد الرسول بقلبه، وإن لم يشاهده بعينه، فكان عليه التبليغ، لأنه تلقى التكليف عنه وعن الله فيجب أن يبلغ .

(ب) وقد صرح النبي ﷺ بأنه يجب أن يعم قوله، وتعمم هدايته بالرواية عنه، وتبليغ قوله وشرعه، فلقد روى الشافعي أن رسول الله ﷺ قال: « نضّر الله تعالى عبدا سمع مقالتي، فحفظها، ووعاها، وأداها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لايغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»

وإن هذا يحث على أن ننقل أقوال النبي ﷺ إلى الأجيال من بعده، وإن أقواله ﷺ هي رسالته، وبلاغها وتبليغها، فالله تعالى ينضر وجه الذي يفعل ذلك، ومن ذا الذي لايريد أن ينضر الله وجهه، ولايكون له عنده وسيلة لرضاه.

ثم الحديث يدل مع ذلك على وجوب النصيحة وإخلاص العمل لله تعالى، وأي عمل أجل في العمل لله تعالى من أن يبلغ رسالة الله، وأن يحمل ما حمل النبيون، ويقوم بما يجب عليهم من التبليغ اتباعاً لهم وأخذاً بهديهم، وسلوكا لسبيلهم، وهو سبيل الله تعالى.

وبهذا نرى الحديث يتضمن في دلالته القريبة وجوب الدعوة أو الندب لها .

(جـ) وإن النبي ﷺ جعل خيرية الأجيال بمقدار دعوتهم للإسلام، والأخذ بتعاليمه، فقد روى الشافعي أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وقف بالجابية بالشام خطيباً، وقال : إن رسول الله قام فينا كمقامي فيكم، فقال : «أكرموا أصحابي، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يظهر الكذب، حتى إن الرجل ليحلف، ولايستحلف، ويشهد ولايستشهد، ألا فمن سرته بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ، وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن» وفي هذا الحديث بيان أن خير الأمة الذين شاهدوا وعاينوا، وهم أصحابه الذين حملوا رسالته، وبلغوها الناس، ونشروا أمرها في الآفاق، ثم الذين اتبعوهم بإحسان في حمل الدعوة،

وتبليغها، وحملوا علم الصحابة وعلم الرسول إلى جيلهم، ثم الذين يلونهم، وكانت الأفضلية فى نظر الفاروق الذى لم يفر فريه فى الإسلام أحد مثله، على حسب قوة التبليغ وحمل الأحكام الإسلامية وتعريف الناس بها، وإن التبليغ قد أخذ يضعف من بعد حتى ظهر الكذب. والكذب أمارة الضعف النفسى، ومن ضعفت نفسه تخاذلت عن القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن النفوس القوية هى التى تفيض على من دونها، فالخير يجئ من أعلى، وينصب فى الأدنى، ومن هانت نفسه لم يستطع القيام بحق غيره من الإرشاد والتهذيب.

(د) والنبى ﷺ كان يحث المؤمنين على أن يكونوا هداة مرشدين مبينين ويعد هداية النفوس لاتقل عن الجهاد فى سبيل الله فضلا فيقول لبطل الجهاد وإمام الهدى على كرم الله وجهه : « لأن يهدى الله تعالى بك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت » .

والجهاد بالحرب، ودفع الأذى هو لقيام الحرية الدينية، وفتح الطريق أمام الهدى المحمدى، فهو وسيلة للدعوة، والغاية هى الدعوة، ومما لاريب فيه أن الغايات هى الصورة المطلوبة بالذات والأصل، والوسائل مطلوبة تبعاً للغايات، والمتبوع دائماً خير من التابع وأفضل، فهى المقصد بالقصد الأول والوسائل مقصودة بالقصد الثانى .

(هـ) وإن الراشدين من الأئمة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى كانوا يرسلون العمال إلى الأقاليم دعاة إلى الإسلام هداة مرشدين، فوق إقامة العدل، ومنع الفساد فى الأرض .

فعمر بن الخطاب، وهو الذى اتسعت فى عهده رقعة الدولة الإسلامية يقول لولاته: «إنى ما أرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، ولكن لتعلموهم أمر دينهم» ومن تعليمهم أمور الدين أن يبينوا لغير المؤمنين حقائق الإسلام، وهم أحرار بعد ذلك فى الدخول فيه « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[1].

ولقد نهج نهج الراشدين عمر بن عبد العزيز، فلقد كان يحثهم على الدعوة إلى الحق، وتعليم الناس أمر دينهم، ونشر الحقائق الإسلامية فى ربوع الذين لم يدخلوا فى الإسلام، واستظلوا بالعلم الإسلامى، ونعموا بالعدالة التى تعم ولاتخص، وعاش فى ظلها البرئ والسقيم، والمسلم وغير المسلم .

ولقد دخل الناس بهذه الدعوات المستمرة، وبالأخلاق الإسلامية أفواجاً وكثروا وكان من أسلم تسقط عنه الجزية، وتجب عليه الزكاة والكفارات، والصدقات المنثورة .

---

(١) الكهف : ٢٩

ولقد خشى والى بيت المال أن يخلو بيت مال الخراج والجزية من المال، فهم بألا تسقط الجزية عمن يسلم، فأرسل إليه الحاكم عمر بن عبد العزيز يلومه على ذلك، وقال له فى كتابه الحكيم : « إن الله تعالى أرسل محمد بن عبد الله ﷺ هادياً، ولم يرسله جابياً » .

ومن هذا الكتاب الحكيم يتبين أمران : أحدهما - أن الدعوة إلى الإسلام هى الهداية الكاملة، فهى عمل الرسول، وعمل من يقتدى به .

وثانيهما - أن كل ما ينافيها حرام يمنع، وإنه بذلك يتبين أن الدعوة إلى الإسلام أجمع الصحابة على وجوبها، وأجمع التابعون من بعدهم على ذلك، فهما إجماعان يؤكد أحدهما الآخر، ولاينتقض هذا الإجماع بتقاصر الهمم من بعد ذلك .

نوع الوجوب

١٢- اتفق أهل العلم على وجوب الدعوة الإسلامية، وكان ذلك الاتفاق إجماعاً انعقد فى عصر الصحابة، ثم عصر التابعين، والإجماع لاينقض إذا تخاذل المسلمون عنه، وقعدوا عنه، فلم يقوموا بحقه .

وكون الإسلام كان ينشر نفسه بتعاليمه، ويتعرف بعض الناس به لايمنع من الوجوب، فالدعوة الحق لازمة ووجوبها مستمر دائم، لأنه لابد أن يسأل الناس لم لايعرفونه، قبل أن يعرفهم المؤمنون الصادقون، فلا يسأل الجاهل لم لاتعلم، ولايسأل العالم لم لايعلم .

ولكن هذا الوجوب الخاص بتعليم الناس حقائق الإسلام أهو وجوب على الخاصة، أم هو على الكافة، وبعبارة أدق أهو فرض عين أم فرض كفاية .

إننا إذا رجعنا إلى ما كان يفعله الصحابة ومن بعدهم التابعون، نجد كل من كان يعلم بالإسلام وحقائق الإيمان يعلم غيره من المشركين، وممن يتصلون به بصلة قرابة أو جوار، أو لقاء، فالدعوة كانت عامة، لإحساسهم بمسئولية التعليم لمن لايعلم، ولأنهم يعلمون أن الإسلام هداية إلى الحق فيدعون إليه من يكون فى ضلال من أمره، وإنك إذا قرأت لقاء الذين هاجروا إلى الحبشة من الصحابة، فقد تكلموا بالإسلام، وبيان دعوة محمد ﷺ، فلقد وقف جعفر بن أبى طالب يشرح للنجاشى حقيقة الإسلام، « روت أم سلمة، وكانت وزوجها من المهاجرين أن النجاشى دعا المهاجرين إلى الحبشة يسألهم عن الدين الذى أخرجهم قومهم بسببه، قائلا لهم ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم؟ فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب رضوان الله تعالى عليه فقال :

أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، حتى بعث الله تعالى إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، ولانشرك به شيئاً، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك، أيها الملك .

قال النجاشى مجيباً عن هذا الكلام المبين بإيجاز لما جاء به محمد ﷺ: هل معك مما جاء به عن الله تعالى شئ ؟

فقال جعفر رضى الله عنه: نعم .

قال: فاقرأه علىّ، فقرأ عليه من سورة كهيعص .

فبكى النجاشى حتى اخضلت لحيته، ثم قال : إن هذا والله والذى جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة » .

ونرى من هذا أن جعفرا رضى الله عنه دعا عند طلب بيان الحقيقة فلم يضن بالبيان، وكذلك الشأن فى كل مؤمن يجب عليه البيان عندما يطلب منه، ويجب عليه البيان عندما يجد أذناً مصغية، ويجب عليه عندما يجد إلى ذلك سبيلا من غير غلظة، ولاتقحم، بل يدخل إلى الأمور من أبوابها .

ونرى أن جعفراً بكياسته الهاشمية اختار سورة مريم التى فيها ذكر لميلاد أم المسيح وولادته، لأنه يخاطب رجلا مسيحياً، فكان ذلك أدنى لاستجابته وأقرب لهدايته، وذلك هو طريق الدعوة .

وكذلك كان كل رجل مؤمن ممّن ارتبط معه برابطة صداقة أو قرابة أو جوار أو معرفة يذكر ما هداه الله تعالى إليه، وما كان سبباً لهدايته موازنا بين الحق الذى اعتنقه، والباطل الذى تركه .

والنبى ﷺ كان يرسل الهداة إلى القبائل النائية، كما روينا فى إرساله معاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى، وعلى بن أبى طالب إلى اليمن، وقد أرسل وهو فى مكة بعد بيعتى العقبة مصعب بن عمير، يفقه الأنصار، ويحفظهم القرآن، ويعلمهم الصلاة، ويقيمها بينهم .

١٣ – وننتهى من هذا إلى أن الهدى المحمدى فى العصر النبوى كانت فيه الدعوات الإفرادية، والتى يتولاها بهدى النبى ﷺ كل مؤمن مدرك يعرف الحق ويستطيع أن يؤديه كما يتسع بيانه، وكان النبى ﷺ يتولى الدعوة يبثها بنفسه الطاهرة العالية، ويرسل أصحابه إلى الجماعات وإلى القبائل ممن أوتوا القدرة؛ ولذلك نرى أن الدعوة إلى الإسلام فرض عينى على كل قادر عليها، ووجد الفرصة سانحة لبيانها، فينتهزها، وهى فرض كفاية على الجماعة الإسلامية، إذ يجب ألا يخلو عصر من الدعوة بحيث لو تقاصرت همم الآحاد، أو لم توات لهم الفرصة قام مَنْ عينتهم الدولة، أو تهيأت لهم الأسباب ليقوموا بذلك الواجب المقدس.

وإن لذلك تفصيلا نعرج عليه بالبيان غير مطنبين، ذلك أن الإسلام له إجمال وتفصيل، فأما الإجمال فالدعوة إلى الله تعالى ببيان وحدانيته، وأنه لاشريك له، وأن عبادة من لاينفع ولايضر باطلة، ثم بيان أن الإسلام قام على خمسة أمور هى دعامته : عبادة الله وحده، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ولابد أن تكون الفاتحة من بين ما يحفظ .

ويبين لهم الصلاة: أركانها وترتيبها والوضوء وأركانه، وغير ذلك مما لابد منه ليعد الشخص مسلماً، ويتمكن من أداء فرائضه .

وإن هذا واجب عينى على كل مسلم يبين الإسلام لمن يأنس بأنه ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولمن تربطه به مودة، ويحب الخير له، كما كان يفعل المؤمنون الأولون، فقد كان كل صحابى داعية لمن يعرف، فأسلم عثمان بدعوة أبى بكر وكان بينهما ود.

ولا ننسى أن المعاملة الطيبة دعوة صالحة، وأن الود يقرب، والعداوة تفرق، وأنه لايجوز سب دينه، ولا التهجم على اعتقاده، فإن التهجم يوجد مقاومة، والمقاومة توجد الانحياز، والانحياز يضع حاجزاً بينه ومن يريد هدايته .

ولايجادل فى الحقائق، فإن المجادلة تستلزم إرادة الغلب من كل من المتجادلين، وإرادة الغلب تمنع وصول الحق؛ وإذا كان لابد من المجادلة فإنها تكون بالتى هى أحسن، ولاتكون بالمعاندة والمغالبة، بل بالاتجاه إلى المعنى الجامع كما قال تعالى : « ولاتجادلوا أهل

الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »[1].

وإن المودة تدنى، والمحبة تجعل السبيل إلى الإقناع معبداً، والإسلام دين الألفة، والدعوة بالائتلاف أقرب وأهدى سبيلا، والنبى ﷺ يقول « تآلفوا الناس »، ويقول « بشروا ولاتنفروا، ويسروا ولاتعسروا » ولو جئت إلى مخالفك بما يجمع بينكما مبتدئاً به انتهيت إلى أن يوافقك فيما تختلفان فيه.

ويدخل ذلك كله فى قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »[2].

وإن الدعوة الآحادية لمن يكون منك دانياً، وإن هذه سبيل قد أنتجت فى الحاضر إن خلصت النية، واعتزمت، واتجهت، واستجابت لأمر الله تعالى ونهيه .

هذه هى الدعوة الآحادية، وقد كان لها الفضل الأكبر عندما غفل الحكام بعد الراشدين عن الدعوة الإسلامية، وشغلوا عن ذلك بالافتراق الذى أضعف حكمهم، وتحول الافتراق إلى تنازع على السلطان وعلى مقدار ما يسيطر كل واحد على رقعة من الأرض .

وفى هذا الحين كان من الناس من انتدب الدعوة الإسلامية احتساباً، وقام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقام بذلك الجماعات والآحاد من غير ترتيب من ولى الأمر، ولاتنظيم من الحكام .

ولكن يجب اتباعا للهدى المحمدى أن تقوم الدولة الإسلامية بذلك، كما ينبغى لها أن تعهد به إلى جماعة إسلامية تخصص لذلك، إذا كانت تريد القيام بحق الإسلام عليها فى تبليغ الدعوة، وإن ذلك الواجب لايغنى عن عمل الآحاد، ولكن يجب أن يكون بجواره، فإنه منذ عهد الحكم الأموى، وقد وجد فى حواشى الملوك من يثير الشبهات حول الإسلام، وإن الآحاد ربما لايتوافر فيهم المقدرة لدفع الشبهات، فإن ذلك يحتاج إلى فهم دقيق للمأثور عن النبى ﷺ .

لقد أثاروا شبهات حول معنى كلمة الله تعالى، ويحتاج رد ذلك إلى فهم للقرآن الكريم، لايتوافر إلا عند الخاصة من العلماء، وأثاروا شبهات كاذبة حول زواج النبى ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش، وأثاروا كثيراً حول تعدد أزواج النبى ﷺ، وإن ذلك كله يحتاج إلى أن تهيئ الدولة المسلمة الأسباب ليتوافر من المسلمين جماعات دارسة فاحصة تتقدم بالحجج القاطعة المانعة للناس من تصديق هذا القول .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ (٢) النحل : ١٢٥

وفوق ذلك، فإن هناك مسائل تحتاج إلى متفقهين فى الإسلام يبينونها، ويذكرون تفصيلها، كأحكام الزواج والطلاق فى الإسلام والميراث، والحرمات الإسلامية بالتفصيل، فإن ذلك لابد من معرفته بالإجمال، ولابد لكمال الدعوة أن يذهب ناس لهم ثقافة عالية إلى البلاد المختلفة يتقنون لغاتها، ويتعرفون نفوس أهلها، ومن أى طريق يمكن التأثير فيهم، وإن أولئك يجب أن يكون لهم دراسات خاصة تكون للدعاية، ويجب أن يزودوا بعلم النفس الجماعى والنفس الفردية، ومنطق الدين وسلاسة البيان وسياسة الحق والتعرف إلى النفوس، ومداواتها، وعلاج المنحرف منها .

وكل أولئك تربيهم الجماعة الإسلامية، كما تربى المهندسين والأطباء، وكل من يقوم بفرض كفائى، يجب على الجماعة توفير الأسباب لهم ليقوموا بواجبهم الكفائى .

من أجل هذا نقول إنه يجب الواجبان الكفائى والعينى .

النصوص تثبت الوجوبين :

١٥- ذكرنا فى بعض ما ذكرنا من أدلة تدل على وجوب التبليغ على الأمة بعد النبى ﷺ « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »[١] وإن هذه الآية تدل على الوجوب على الأمة كلها وجوباً فردياً وجماعياً، والوجوب الفردى قد شرحنا مؤداه، وبينا حدوده، وطاقات من يقومون به، وقد تكون محدودة تعرف أصل الإسلام، ولاتعرف تفصيلات أحكامه، ونريد أن يعرف كل مسلم جديداً أو قديماً أن يعرف ما أمره الله تعالى به وما نهى عنه، يقوم بذلك قوم من الأمة، والآية تومئ إلى الوجوب على الكل، وتخصيص جماعة بالتعرف الكامل لتفصيلات الأحكام، فلايعد المسلم مسلماً إلا إذا أدى كل التكليفات الإسلامية يقوم بتعريف بعضها كل مسلم، ويبين سائرها العلماء بالدراسات الإسلامية، وليس معنى ذلك أن فى الإسلام الكهنوت كالذى عند الذين اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، فليس لعالم أن يقول إلا نقلا عن كتاب أو سنة، أو اتباع الذين شاهدوا وعاينوا، وتلقوا عن الرسول مباشرة، وأدركوا منه معانى التنزيل .

ولنذكر ببعض التفصيل ما ترمى إليه الآية الكريمة « ولتكن منكم أمة »[٢] فمن فى قوله تعالى منكم تدل على أحد معنيين : أحدهما - أن تكون بيانية، والثانية أن تكون للتبعيض، وعلى أنها بيانية يكون المعنى، ولتكونوا أيها المسلمون جميعاً أمة داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، فإن ذلك هو أساس الفلاح، وإن هذا المعنى متلاق مع قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»[٣].

---

(١) آل عمران : ١٠٤ (٢) آل عمران : ١٠٤ (٣) آل عمران : ١١٠

فالآيتان على أن مِنْ بيانية تكونان دعوة للأمة كلها أن تبلغ الرسالة المحمدية، ولكن ذلك لايمنع أن يتخصص بعض المؤمنين لتفقيه الناس فى دينهم بعد أن يدخلوا فى دين الله تعالى كشأن كل أمر واجب على الجماعة كلها، يقوم كل واحد بما يستطيعه الواحد منفرداً ثم يخصص الجماعة له من يقوم به، ويهدى الناس إليه، وقد كان فى كل جيل بعد النبى من يتعلم ومن يُعلِّم، أى من يعرف أصول الإسلام فيقوم بها، ومن يستفتى عنده فى العلم بما يجهله.

وعلى تفسير (من) فى قوله تعالى : منكم، بأنها تبعيضية بمعنى بعض، فالمعنى على هذا ليكن بعضكم متخصصا فى الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويكون هذا متفقا فى مؤداه مع قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »[1].

وإننا نرى أن يكون معنى الآية على أن من بيانية على الأمر بأن تكون الأمة داعية إلى الخير كقول القائل : ليكن منك رجل فاضل يدعو إلى الخير ويهدى إليه، وإن الذى سوغ لنا اختيار ذلك هو قوله من بعد ذلك : (أولئك هم المفلحون) بضمير القصر أى أن الفلاح مقصور عليهم دون غيرهم، وذلك أنسب أن يكون وصفاً للأمة كلها، ولنعد تلاوة الآية الكريمة، فإن معنى العموم يكون واضحاً بيناً، وهذه الآية تعالت كلماتها (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون)[2].

فالفلاح يكون مختصاً بأمة تدعو إلى الخير، وتفيض بالعلم على الإنسانية كلها تدعوها إلى أعظم خير فى الوجود، وهو دين الله تعالى الحق، وإن الدين عند الله الإسلام .

وهنا قد يسأل سائل، كيف تكون الدعوة عامة، ومع ذلك نقول إنها فرض كفاية وفرض عين معاً، ونقول فى الجواب عن ذلك: إن التكليف عام، بحيث يقوم كلٌّ بكفايته وما آتاه الله تعالى من علم، ولايخلى إنسان نفسه من تبعة الدعوة، والقيام بحقها، بيد أن على الأمة واجبين أحدهما ما يقوم به كل واحد بعينه فى الدعوة إلى الحق هادياً مرشداً .

ثانيهما - أن يخصص ناس لهذه الدعوة من الأمة يكون لهم فضل علم بكتاب الله تعالى وفضل كفاية بيانية، وحكمة وإدراك، كما فعل النبى ﷺ عندما اختار مصعب بن عمير لأهل المدينة معلماً مقرئا للقرآن، وكما اختار بعد فتح مكة لقريش من يعلمهم أحكام الإسلام، ويخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام وهديه .

(١) التوبة : ١٢٢ (٢) آل عمران : ١٤٠

وبذلك يتبين أنه الْتقى التكليف العام، وفرض الكفاية، وإن الإمام الشافعى رضى الله تبارك وتعالى عنه، وصف الفروض بأن الخطاب بها عام، ويدخله الخصوص، فالأمة تكون كلها مخاطبة، وهو على العموم، وتركه إثم للجميع، ويجب تخصيص جماعة لذلك، والجميع يستوون فى الإثم عند الترك العلماء وغيرهم، لأنهم جميعاً لم يقوموا بالواجب عليهم، وبتطبيق ذلك على الدعوة إلى الإسلام دعوة الخير الشاملة يكون كل واحد فى الأمة مطالبا أولا بالقيام بالدعوة بقدر طاقته من العلم والكفاية والبيان، ومطالباً ثانياً بالمعاونة على تخصيص طائفة من المؤمنين تكون أقدر بيانا، وأعلم بالأحكام، وتعرف أوجه الحق، والدعوة إليه، ومخاطبة النفوس عارفين بلغات من يدعونهم، ولهم جلد على الضرب فى الأرض، وتحمل مشاق الأسفار فى البر والبحر .

وإنه بمقتضى هذا يتحقق فرض الكفاية، وفرض العين معاً، ويتحقق تخصص الذين يقومون بالدعوة فى كل مكان، ويتحقق الوجوب على الذين يقومون بالدعاية الشخصية، حيثما وجدوا للدعوة سبيلا، وكل مؤمن على ثغرة من ثغور الإسلام يحميه، ويدعو إليه ويحث الناس على اتباع النبى الأمين ﷺ فهو رسول الإنسانية، بعث للإنسانية كلها، لافرق بين أبيض وأسود، ولاعربى وأعجمى، بل الجميع أمام مائدة الهداية المحمدية على السواء، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

١٦ - ومن هذا يتبين وجوب التعاون على الدعوة إلى الإسلام من الآحاد والجماعات، الآحاد عليهم أن يقوموا بما يستطيعون، وعليهم أن يعاونوا الطائفة التى تتفرغ لهذه الدعوة، أو تكون أقدر على نشرها والقيام بحقها، والدولة هى الجامعة لهذا الوعى فى الدولة، عليها تخصص جماعات لها، عليها أن تخصص جماعات من بينها، كما تخصص جماعات للقضاء وللهندسة وللطب، والقيادة. فكل هذه فروض كفاية، والجماعات الإسلامية ممثلة فى دولها عليها أن تخصص لكل فرض كفائى من يقوم به ويسقط به الحرج على الباقين فى الدعوة التى لايمكن أن يقوم بها إلا الخاصة القادرون على مخاطبة الكافة فى أقاليمها وشعوبها بلغاتهم، ومن الحق فى هذا المقام أن نبين موقف العلماء فى آخر عصر التقليد، ومن جاء بعدهم .

إننا نجدهم تخلفوا، وتركوا الإسلام ينشر نفسه، مع أن حال المسلمين لم تكن داعية، بل كانت منفرة لولا كتاب الله المانع من الضلال، وإن الاستجابة إليه ثابتة وأهله أخذوا يتلونه مترنمين، وحاسبين أن ذلك يكفى لإقامته.

لقد رأينا المقلدين عن غير بينة فى كل شئ لا فى فروع الأحكام فقط فقد يكون التقليد فى فروع الفقه فيه تحصن من الانحراف عن معنى الإسلام واتباع هوى الحكام، ولكنهم قلدوا فى الإهمال والترك، ورضوا بأن تهمل دعوة نبيهم، تقليداً لمن أهملوها، وتجنبوا تقليد من أقاموها .

لقد رأينا من العلماء المقلدين من يرون أن أهل أوروبا وأمريكا والوثنيين عليهم أن يؤمنوا وإن لم يدعوا إلى الإيمان، ولم تبين لهم حقيقة الإسلام زاعمين أنه مادام قد أعلن وجود محمد ﷺ ودعوته، فقد وجب على كل عاقل أن يتعرف، وإن لم يكن من يعرفه، ولو كان ما يصل إليه عن الإسلام تشويها لحقائقه، ومن يعلمه يحرفه، والشعوب فى جهالة من أمره، ومع ذلك يقول المهملون لأمر الدعوة الإسلامية من العلماء : وإن على غير المسلمين أن يبحثوا ويعرفوا مادام الإسلام قد اشتهر، من غير داع يدعو، ولانذير ينذر ولاهاد يهدى، بل غير المسلمين عليهم، وهم يعدون بأكثر من ١٠٠٠ مليون أن يتعرفوا، يستوى فى ذلك القارئ والأمى، والعالم والجاهل .

وإن هذا يجانف للإثم، وهو قصور وتقصير من علماء المسلمين، ومخالفة للإجماع الذى انعقد فى عهد الصحابة، ثم كان فى عصر التابعين فوق مخالفته لنصوص القرآن التى تلوناها، وأحاديث النبى التى رويناها .

ولكن لماذا كان هذا القصور، أو التقصير؟ لكى نعرف سببه لابد أن نحدد وقته ومتى ابتدأ، وما الذى اقترن به عصر ابتدائه .

(أ) إننا نحسب أن ذلك القصور كان عندما انحلت الدولة العباسية، وتقطعت أجزاؤها متناحرة، يضرب بعضها بعضا، وشغل المسلمون بأمر دنياهم عن دينهم وصار بأسهم بينهم شديداً، يأكل بعضهم بعضا .

فأخذت همة العلماء تضعف، وعزائمهم تنحل، وانصرف الكثيرون منهم إلى أوهام فى الحياة والقوة، ولذلك شاعت وسيطرت بدل الحقائق الشعبذة، فانشغلوا بها عن الإسلام الذى هو حكم العقل المستقيم، والمنطق القويم، وحل التواكل، وبعدوا عن كتاب الله تعالى لايدركون مراميه، وإن شغلوا به ففى غير تنفيذه، وكان المفسرون منهم يتعرفون أسراره ولاينفذون فى الدعوة إلى أحكامه، ومنهم من ادّعى أن القرآن المقصد الأول من نزوله هو التعبد بتلاوته والإنصات إليه، وقراءة ما تيسر منه فى الصلاة .

وإن تدهور الحكم الإسلامى وفساده ألقى فى نفوس الناس يأساً، وإذا حل اليأس

فى قلوب ضعفت الهمم عن أن تقصد قصداً صحيحاً إلى أمر من الأمور، وصار الحكام مشغولين بتوطيد ملكهم، والعلماء فى خدمتهم، ومن لايفعل أبعد وجافوه، فكانت المجالس فى كثير من الأحوال بعيدة عن العلم والعلماء .

(ب) وليس ذلك هو السبب فقط، بل شغل العلماء عن الدعوة إلى الإسلام منازعات، كما شغلت الحكام، وانقسموا فرقا فى مسائل حول أصول الاعتقاد، فتنازع المعتزلة مع الفقهاء والمحدثين أمداً طويلا، وإن كان للمعتزلة مقام فى الدعوة سنذكره ولكن الجهد الأعظم كان فى مغالبتهم للفقهاء والمحدثين ومن ذلك مسألة خلق القرآن التى شغلت علماء المسلمين قرنا كاملا أو يزيد، وأوذى العلماء الذين خالفوا الدولة التى رأت رأى المعتزلة فى عصر الملك العالم عبد الله المأمون بن الرشيد وضرب فيها الأئمة وسجنوا من أمثال الإمام أحمد بن حنبل، والبويطى صاحب الشافعى، وراوى علمه .

(د) ومن هذا يتبين أن منازعة الآراء شغلت العلماء، كما شغلت المنازعات على الأرض الأمراء، فكان العامة والخاصة فى شغل شاغل عن القيام بالفروض وعلى رأسها القيام بالدعوة الإسلامية، وبذلك وهنت الدعوة، ولم يقوموا بحق التبليغ .

(جـ) ومع هذه المنازعات الفكرية والسياسية والحرب دهمتهم من الخارج داهمة الحرب الصليبية التى شنت على المسلمين فى القرن السادس الهجرى، وأخذ الصليبيون بيت المقدس، فشغلت هذه الحملة العاتية النفس الإسلامية، شغلت نفوس العامة، واستغرقت نفوس الخاصة، وأصيب المسلمون بانكسار جعلهم يفكرون فى أرضهم، وكيف يدفعون عنها الاعتداء، ولم يفكروا فى أن يفيضوا على غيرهم بالهداية والدعوة إلى الخير، فشغلوا بأنفسهم عن أن يدعو غيرهم إلى الإيمان، وانقبضت النفوس والعقول عن أن تعمل على تبليغ الرسالة، وقد ظنوا بأنفسهم الظنون، واقترنت هذه الحروب بالحكم الغاشم من الحكام، الذى ارتكست فيه النفس الإسلامية، فى مهاوى الذل، إن لم يكن الأجنبى، فهو من الحكام الغاشمين الظالمين، وهم فى الأذى أشد بأساً، وأكثر إيغالا .

(د) وما إن خف بأس الحملة الصليبية، وأخذ المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس، وأخذ المسلمون يتجهون إلى أرضهم يصلحونها وإلى نفوسهم يقوونها، حتى دهمتهم داهمة التتر فقد جاءوا إليهم من أطراف الصين كالصخرة، فخربوا الديار، وأزالوا من بغداد ما كان يسمى بالخلافة الإسلامية، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى، واستمر إلى الثامن، حتى دخلوا فى الإسلام، وإن لم تنته غاراتهم بانتهائه، بل استمروا فى غواية الحرب والحروب، وصار أمر المسلمين بوراً .

وجاء الحكم العثمانى، فلم يكن تفكيره فى الدعوة إلى الإسلام، بل كان تفكيره متجهاً إلى حرب الغلب، وقد أفاد الأتراك من ذلك غلباً، ولم يستفد الإسلام من ذلك، لأن المسلمين قد ضعفت نفوسهم، وهانوا على أنفسهم، ولادعوة إلى الحق ممن أصاب الهوان نفسه، ولم تكن العثمانية تعمل للإسلام بمقدار عملها للسلطان، ففى عهد سليمان القانونى كانت مدافعه تدك أسوار فينًا فى النمسا دكا، والصليبية فى الأندلس تبيد المسلمين وتنقب القلوب، ويستغيث المسلمون فى الأندلس ولامغيث.

فما كان من المعقول أن يفكر هؤلاء الحكام فى الدعوة إلى الإسلام .

قصور بلا حجة ولامعذرة :

١٧- لاحجة لمن تركوا الدعوة إلى الإسلام، فالبراهين قائمة ثابتة، وليس لهم أن يقولوا «لايكلف الله نفساً إلا وسعها»[1] لأن الطاقة توجدها الهمة والعزيمة، والوسع يتبع قوة الإيمان، فمن كان قوى الإيمان بالحق، كان ذا طاقة تتسع لما يوجبه الإيمان .

وإن العيب يكون لاحقاً لمن كان قادراً، ولكنه يصم نفسه بالعجز، فإن ادعاء العجز ينتهى بالعجز، ولاعذر بالضعف الحربى، لأن الضعف الحربى وليد الضعف النفسى، وإذا كان الأمراء قد تنازعوا، فإن ذلك لاينزع الإيمان من القلوب .

إنه يجب علينا أن نعرف أن الدعوة إلى الإسلام وبيان هدايته فرض كسائر الفرائض، فهو مطلوب حتما كسائر المطلوبات الحتمية، وإذا كان الناس لايستجيبون فى نفوسهم، كما يستجيبون للصلاة فذلك لنقص فى إيمان المؤمن بحق غيره عليه، وإن عدم الإحساس بذلك، فوق أنه نقص فى الإيمان هو دليل على أن المصلى لايقوم بحق الصلاة، لأن إقامة الصلاة على وجهها تقتضى ذكر الله تعالى، ومن ذكر الله تعالى عليه أن يعلن أمر الله تعالى ونهيه، وأن يدعو الناس إلى توحيده، وعبادة الله تعالى وحده لايشرك به شيئاً.

إنه قد ثبت من السياق التاريخى الذى ألمعنا إليه سيطرة الباطل، فالحكام متنازعون لايقومون بحق الحكم، ولايحكمون بالعدل بين الناس، والأمة قد شغرت من الأخلاق، وتوالى هجوم العدو من الشرق والغرب، فالباطل قد استحكم، والظلم قد تحكم .

ونقول هنا: إنه كلما اشتد الفساد، وجب العمل على الإصلاح، وبمقدار قوة الشر تكون العزيمة فى الخير، فلا يشغل الشر عن الخير، وإلا عم الفساد، وضل العباد إلى يوم

---

(١) البقرة : ٢٨٦

القيامة، ولو كان استحكام الشر داعياً إلى السكون ما أقام رسول من رسل الله تعالى دعوته إلى الحق، ولا رجع محمد بن عبد الله ﷺ بمجرد أن صدمه المشركون بالإنكار، وبادروه بالعداوة والإيذاء، وما كان ليفعل، وقد قال له ربه «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»[1] ففى وسط الباطل يجب النطق بالحق، والدعوة إليه، وبمقدار قوة الباطل تكون قوة الدعوة ، والداعى إلى الحق، فلجاجة الباطل لا يخفت معها صوت الحق، بل يجب أن يعلو عليها .

واليأس من سماع الحق أو الاستجابة لايمنع الدعوة إليه، بل يجب أن يعمل العالم، ولاييئس، فإن اليأس سمة الكافرين بالحقائق غير المؤمنين بها؛ فإن الله تعالى يقول : «إنه لاييئس من روح الله إلا القوم الكافرون »[2].

إن اليأس لم يصل إلى قلب النبى ﷺ، وقد تحمل الأذى ثلاث عشرة سنة دأباً، فما يئس فيها ساعة من زمان، وما يئس يوم أن رأى شبه إجماع من المشركين على عداوته، وما يئس يوم أن ذهب إلى ثقيف فى الطائف، فأغروا به سفهاءهم، وأدموه، بل قال مقالة الراجى ما عند ربه «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» وقال: «إنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى »، وما يئس ﷺ، ومن معه عندما كان جيش الإيمان قد أثقل بالجراح فى أحد، بل إنه لما علم أن المشركين هموا بأن يعودوا للقضاء على جيش الحق، دعا الجيش الجريح لأن يعود إلى الميدان، بل إلى تتبع آثار المشركين، ولم يدع إلا من ذاق الجرح، وابتلى فى الميدان، فصدق عليهم قول الله تعالى «الذين قال لهم الناس، إن الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»[3] .

هذا رسول الله ﷺ فى تبليغه الدعوة ما دخل قلبه يأس .

قد يقول قائل هذا مقام النبوة، فهو مؤيد من الله تعالى، والوحى كان ينزل عليه، والله يمده بنصر من عنده، فهو المتبوع فى الحق، فهل يبلغ التابع درجة المتبوع .

ونقول فى الإجابة عن ذلك إن الله عاصم رسوله من الناس، ومانحه التأييد والتثبيت ولكن جعل سبحانه وتعالى عمله بشرياً يخطئ ويصيب وينتصر وينهزم، ويحقق الله تعالى له الغاية بنصره وتأييده، ولكن بسبب من أعماله وقوة إيمانه هو وأصحابه ونصرهم لله تعالى بالعمل الصالح، واتخاذ الأسباب، كما قال تعالى «إن تنصروا الله ينصركم، ويثبت أقدامكم»[4].

---

(١) الحجر : ٩٤ (٢) يوسف : ٨٧

(٣) آل عمران : ٧٣ (٤) محمد : ٧

ولأن عمل الرسول ﷺ فى أسباب النصر والدعوة بشرى، كان على أصحابه أن يقتدوا به ويسلكوا سبيله، ويتبعوه ليبقى التبليغ موصولا غير مقطوع، ولتبقى كلمة الله عليا دائماً، ولذلك قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »(١).

وإن الدعوة فيما يمكن فيه الأسوة، وهى العمل بمقتضى البشرية، أما الوحى والتثبيت الربانى من الله تعالى، فهو من أوصاف النبوة، لايسمو إليه أحد من العباد .

وننتهى من هذا البيان أن التبليغ واجب على المؤمن على النحو الذى بيناه من حيث إنه واجب كفائى وعينى معاً، وأنه ليس للمسلمين أن يتقاصروا عن أدائه وألا يعذروا لأنفسهم، إذا أصابهم أمر ضعف فى سبيل الله، فالوهن من التقصير فى الدعوة إلى الإسلام، وتبليغ الهدى إلى أهل الأرض جميعاً، لأن الرسالة المحمدية يخاطب بها الناس كافة لافرق بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر، إنهم إن استمروا على التبليغ كانوا طالبين للعلو بإعلاء الحق، فلن يهنوا ولايستكينوا ولايراموا بذل أبداً، ويكونون الأعزة، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولن يكونوا طعمة لأهل الشر فى الأرض وطغاتها، ولن يسيُروا فى غمرة التاريخ ولايملكوا من أمرهم شيئاً .

إن العالم يبلغ غير المسلمين فيه أكثر من ألفى مليون أو يزيدون، ونحن مسئولون عن استمرارهم على الكفر، لأننا لم نقدم لهم أى دعاية هادية فيجب أن نتقدم بدعوتهم إلى الهدى ودين الحق كما تقدم النبى ﷺ، ولتكن دعوتنا ابتداء ببيان حقائق الإسلام فى ربوعنا بكتب تكتب، وبكتابات تنشر، وبموازنات علمية دقيقة بين الوحدانية والوثنية، وبيان المبادئ موازنة بما عليه الأقوام من أوهام، والله سبحانه وتعالى عليم خبير .

الدعوة إلى الإسلام فى حياة أصحاب النبى ﷺ

١٨ - انقطع الوحى بوفاة النبى ﷺ ولكن بقى أعظم ماجاء به الوحى، وهو القرآن الكريم الذى نزل على قلب محمد ﷺ، وأقرأه قراءته، وعلمه ترتيله، وقال له، « لاتحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه »(٢).

(١) الأحزاب : ٢١ (٢) القيامة : ١٦

فإذا كان الوحى انقطع فقد بقى أعظم آثاره وثماره، وإذا كان النبى ﷺ قد مضى إلى ربه بعد أن أدى رسالته، فقد أكمل بيانها، ورويت أخباره وأحاديثه أحكامها، ولذا قال النبى ﷺ: « تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله تعالى، وسنتى» .

ولقد أدى صحابته الأولون من بعده أمانته، وقد كمل الدين، وقد أعلم الجزيرة العربية كلها بهذا الدين، وتجاوزت أخباره أقطارها، إلى من يجاور العرب من الفرس والروم والشام ومصر والحبشة، وبعض هذه الأخبار سارت بها الركبان، وتسامع العرب ومجاوروهم بأمر الإسلام دين التوحيد والعدل والإخاء الإنسانى والوحدة الإنسانية .

وتولى النبى ﷺ إعلام كل الدول المجاورة بالإسلام بكتب أرسلها، وببعوث بعثها .

١٩- وإن الرعيل الأول من الصحابة أحق من حمل رسالته، وقام على نشرها، والذود عنها .

وقد اختبرهم الله تعالى بالردة بين أكثر الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم: «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله[1]»وقال سبحانه فيهم: «قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم»[2].

فالإسلام إذا كان قد دخل الأرض العربية وما جاورها، وأذعنوا لأحكامه الظاهرة فالإيمان لم تخالط بشاشته قلوب بعضهم، فارتد أكثرهم، ولم يكن ارتدادهم بعد إيمان، لأنهم لم يؤمنوا كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم، وهو أصدق القائلين، لأن من يدخل قلبه الإيمان بالحق لايخرج منه، إنما يرتد إلى الشرك من أسلم بظاهر من القول، ولم يخالط الإيمان قلبه .

ارتد العرب، وحاولوا أن يساوروا المدينة، ولكن عزمة خليفة رسول الله ﷺ ومن معه من أصحاب الرسول الكرام وحوارييه الأطهار، ردوا كيدهم فى نحورهم، وأبو بكر بعزمته القوية أعز الإسلام فى الجولة الأولى، ثم أرادوا وقد عضتهم سيوف الحرب أن يقيموا الصلاة دون الزكاة فرفض إلا أن يدفعوها ويقيموا الصلاة، ورفض قول من يفرق بين الصلاة والزكاة لأن كلتيهما ركن من أركان الإسلام الخمسة، وفوق ذلك فإن الزكاة أمارة الطاعة والانقياد، وقال : سلم مخزية أو حرب مجلية.

---

(١) التوبة : ٩٧ (٢) الحجرات : ١٤

وقد رأى عمر رضى الله عنه أن من الرفق أن يقبل الصلاة وقال لخليفة رسول الله ﷺ: يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم، كيف تقاتلهم، وقد قال رسول الله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم ونفوسهم إلا بحقها، فأجاب الصديق لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، وكأنه يقول : إن من حقها أداء الزكاة ثم عتب على عمر فى موقفه هذا، وقال له :

ويحك يابن الخطاب رجوت نصرتك، وجئتنى بخذلانك !! أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام، إنه انقطع الوحى، وتم الدين، أو ينقص وأنا حى؟ » .

كانت هذه العزمة البكرية منقذة للإسلام، عاونه فيها الصديقون من أصحاب رسول الله ﷺ، فكان على كرم الله وجهه على المدينة بجيش حارس رابط، وإذا كان عمر رضى الله تعالى عنه قد خالفه لم يمنعه ذلك من المعاونة، وكان الفاروق سريع الرجوع إلى الحق إن بدت معالمه بعد خفاء، فسرعان ما خطأ نفسه، ورأى فى عمل الصديق الرأى الصائب النافذ إلى الحق فى صميمه من غير هوادة :

٢٠ – ومع أن هذه الحرب كانت شاغلة للمؤمنين، قد صرفوا فيها جهودهم، فإنه أنفذ أمر النبى ﷺ فى أمر يتعلق بالدعوة ولم يؤجله، وكيف يتردد فى تنفيذ أمر النبى ﷺ، فقد كان النبى ﷺ أمّر أسامة بن زيد على جيش يذهب إلى الشام، وأوصى بذلك، وشدد فى تنفيذ وصيته، وماذهب ذلك الجيش لينتقم من مؤتة، كما ذكر بعض المؤرخين، فقد كانت تبوك رادعة قاطعة مبعدة نفوذ الرومان عن أطراف البلاد العربية، ولكن كان البعث النبوى للدعوة الإسلامية فى أطراف البلاد العربية بين الذين خلعوا ربقة الرومان، وانضموا إلى الجيوش الإسلامية فى غزوة تبوك، ويدل على ذلك أمران :

أحدهما : كان فى وصية النبى ﷺ، أن النبى أوصى بأن يكون فى الجيش أبو بكر وعمر، وهما شيخا المسلمين، ولهما فضل علم بالإسلام فى كلياته وجزئياته، فما كان مثلهما ليرسلا إلى الميدان إلا لحكمة نبوية أرادها نبى الحكمة محمد ﷺ، وهى تعليم تلك القبائل الإسلام، لقد أرسل من قبلُ معاذ بن جبل، وعلى بن أبى طالب، وأبا موسى الأشعرى إلى اليمن ليعلموهم الإسلام بعد أن يدعوهم إليه، فكان المنطق ألا تحرم القبائل المتاخمة للرومان من الهدى المحمدى والدعوة إلى الإسلام وتعليم أحكامه، لقد كان الإرسال إلى اليمن فى العام العاشر، فكان من منطق الحكمة أن يرسل الشيخين أبا بكر وعمر لمثل ما أرسل إليه العلماء الأولون من الصحابة .

فكانا معلمين فى هذا البعث وليسا محاربين .

الدليل الثانى : أن البعث الذى أوصى به رسول الله ﷺ لم يلاق قتالا وجاء لم ينقص منه أحد، ولم تذكر كتب السيرة أنه لاقى قتالا، فلم يذكر من قتل من الأعداء، كما لم يذكر من لقى، فهو لم يكن بعثاً حربياً، ولكن كان بعثاً هادياً .

ولم يذهب الصديقان فى الجيش، لأن الأمر كان يستدعى بقاء أبى بكر، وقد اختاره المؤمنون خليفة لرسول الله ﷺ، والمدينة يساورها المرتدون، فيكون قد ترك وراءه من العورات أضعاف ما هو سائر إليه، ولذلك استأذن أسامة الذى أمره ﷺ أن يترك له عمر، ليستعين برأيه، ولتكون عصابة الحق كلها معه، فبقى، وكان مستشار أبى بكر، رضى الله تعالى عنهما .

ولقد كان تنفيذ بعثة رسول الله ﷺ ذا شأن فى تخذيل المرتدين، ذلك أنه عندما ذهب إلى مؤتة مجتازاً القبائل فى الجزيرة العربية كان مرهباً للمرتدين، مثبتاً لهم أن الجيش الإسلامى فيه قوة تقاومهم، وترد كيدهم فى نحورهم، ولله الكلمة العليا عليهم، والحق فوقهم، وأنهم لامحالة مخذولون، بعون الله تعالى، فلن يغلب جيش الإيمان .

بعد أن فرغ المؤمنون من الردة، اتجه الصديق إلى الدعوة إلى الإسلام، فقد جمع العرب من بعد النصر، وتصفية العرب من فلول المرتدين، وتوجه بهم إلى الدعوة .

دعوة الصحابة إلى الإسلام

٢٠- يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا، فإن حزب الله هم الغالبون[١] » .

إذا كانت قد ارتدت غالبية الجزيرة العربية أو أكثر من نصفها، فقد كان ذلك إيذاناً بأن يبدل بهم الله خيراً منهم، ولقد قال بعض المفسرين : إن الذين وعد الله تعالى بأن يأتى

(١) المائدة: ٥٤ - ٥٦

بقوم يحبهم ويحبونهم هم الفرس، وقد يكون ذلك القول متفقاً مع السياق التاريخى، لأن من فتح الله على المسلمين أرضهم الفرس، ولكن نقول، إن الذين وعد الله تعالى بهم من الفرس، والشام، ومصر .

مهما يكن من ينطبق عليه النص الكريم من الجماعات والقبائل، فإن وعد الله تعالى هو الصدق الذى لاريب فيه، فقد انبرى الصدِّيقان أبو بكر وعمر من بعد انتهاء أمر الردة إلى الاتجاه إلى من وراء العرب من الفرس والعراق والشام ومصر، وانسابت الجيوش الإسلامية داعية إلى الله وإلى رسوله، وإلى الحق المستقيم، والله تعالى يؤيدهم بنصره لتبليغ رسالته .

أساليب الدعوة فى عهد الصحابة ومن وليهم

٢١- اتجهوا أول ما اتجهوا إلى القرآن الكريم الذى هو سجل الدعوة، وقد كان محفوظاً فى الصدور ومكتوبا بأمر النبى ﷺ، ولكن فى رقاع وقد توزعتها أيدى أصحابه .

وخشى الصحابة بإشارة عمر الفاروق أن يموت من حفظوا القرآن، وجمعوه فى صدورهم وقد رآهم يتهافتون على الحرب لمقاومة الردة، وإخضاع أهلها، تهافت الفراش، فيضيع القرآن، وهو سجل الإسلام، بل سجل النبوات، والرسالات الإلّهية للأنبياء الذين عرفوا فى الشرق العربى وما حوله .

اتجه إلى جمع المتناثر من الرقاع مطابقا لما يحفظون فى صدورهم، ويكون فى مصحف تحقيقاً لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»(١).

جمعوا المصحف بجماعة من الحفاظ سلكوا فى جمعه أوثق الطرق، واتخذوا فى ذلك ما يأتى:

(أ) هم حافظون للقرآن الكريم مرتباً ترتيبه المتواتر كل آية فى موضعها بتوقيف من جبريل عن الله تعالى، وحفظه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، كما راجع جبريل روح القدس الأمين، وكل سورة فى ترتيبها، وأعلنوا فى المدينة الطاهرة أن من عنده رقعة كتبت بإملاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقدمها لهذه الجماعة الحافظة، وفيها زيد بن ثابت وأبى بن كعب وغيرهما من الحفاظ.

---

(١) الحجر : ٩.

(ب) من أحضر آية أو آيات لهذه الجماعة الحافظة لا يقبل مايأتى به إلا إذا كان معه اثنان يشهدان بأنه كتب فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بإملائه، فإذا جاءت هذه الشهادة الكاملة دون ما جاء به.

جمع المصحف بهذه الطريقة المحكمة، وما كان كتابة جديدة، بل نسخ للمكتوب فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد كتب القرآن كله بلغة قريش فى حياته عليه الصلاة والسلام.

(ج) ولما نسخ ذلك المصحف بما كتب فى حياته الجليلة الكريمة عليه الصلاة والسلام، لم ينقط ولم تضبط حركات الحروف بما يسمى شكلا، وذلك لسببين:

أولهما – أن تكون قراءته بطريق مقرئ يقرئه، لأن القرآن ليس متواتراً بلفظه وحروفه فقط، بل هو متواتر بطريقة قراءته وترتيله، ومده وغنه، كما قال تعالى: «ورتلناه ترتيلا»(1) وكما قال تعالى فيما تلونا من قبل : « لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه* فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه»(2).

فالقرآن متواتر بلفظه وحروفه وترتيله الذى تلقاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى بتواتر.

ولقد حفظ المصحف الذى كتب فى عهد الشيخين أبى بكر وعمر فى بيت أم المؤمنين حفصة.

وكان القرآن يتلى فى كل الأمصار التى فتحت، لأنه أعظم داع، ويقرأ فى الأمصار التى أنشأها المسلمون فى عهد أمير المؤمنين عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه وهى البصرة والكوفة.

وكان يقرئه المقرئون فى كل الأمصار لأنه لب الإسلام، ولسان الدعوة إليه، يتلونه ويتدارسونه، وعلماء الصحابه كابن عباس وابن عمر وابن مسعود يعلمون الناس أحكامه.

ولقد اختلف المسلمون فى قراءته ببعض لهجات عربية قد نسخها النبى ﷺ ، وأبقى لغة واحدة هي لغة قريش، وكانت قراءته باللهجات العربية لتتيسر تلاوته، ثم نسخت القراءة باللهجات ماعدا لغة قريش، فكان من الناس من يقرأ ببعض اللهجات غير عالم بنسخها، فاضطرب بعض القراء، وكان اختلاف عَمِلَ ذو النورين عثمان على حسمه.

---

(1) الفرقان : ٣٢. (2) القيامة : ١٦ – ١٩.

وفى سبيل ذلك جمع الجماعة التى ألفت فى عهد الصديقين أبى بكر وعمر، وضم إليها سعيد بن العاص وطلب إليها أن تجمع القرآن مرة ثانية، واتبعت الطريقة التى اتبعتها فى المرة الأولى هى جمع الرقاع التى كتبت فى عهد الرسول، والإشهاد على كتابتها في عهده عليه الصلاة والسلام، وانتهت الجماعة من كتابة المصحف الجديد فى تكوينه، وكان المصحف الأول محفوظا عند أم المؤمنين حفصة، فقابلت الجماعة مع ذى النورين عثمان بينه وبين المصحف الذى كتب، فكان التوافق بينهما كاملا.

وبعد هذا الاستيثاق أقر بأن ينسخ من هذا المصحف الإمام نسخ على قدر عدد الأقاليم وأبقى الأصل فى المدينة.

وأمر رضى الله تعالي عنه بحرق المصحف الذى كان مودعاً عند أم المؤمنين، فحرق وكان بعد وفاتها رضى الله تعالى عنها، ولكن الأمر كان فى عهد عثمان.

والسبب فى أمره بحرقه أنه خشى بعد وفاتها أن يقع تحت يد من يدّعى الاسلام من المشركين أو اليهود أو النصارى، فيجرى فيه تصحيفاً أو تحريفاً، ويدعى أنه المصحف، ويكون الاضطراب، ولا يمكن أن تجرى الأيدى بالتصحيف أو التحريف فى غيره من نسخ المصحف الإمام، لأنه كان محفوظاً بدار الإمارة فى كل بلد عربى إسلامى، وقد حفظته كل الأعصار.

وقد كتب مصحف الإمام، وما نسخ منه غير منقوط، ولا مشكول، لكيلا لا يستطيع أن يقرأه بغير مقرئ يقرأ عليه ليحقق تواتر القرآن محفوظا فى الصدور، وليس مكتوبا فى السطور فقط، فإن ما يدون فى السطور يقبل التحريف والتعديل والتصحيف، أما ما يحفظ فى الصدور، فإنه لا يجرى فيه تحريف، ألم تر إلى اليهود فى عصرنا هذا عندما أرادوا الأعتداء على القرآن حاولوا أن يحذفوا ويغيروا فى المصاحف، ولكن رد محاولاتهم حفظ القرآن فى الصدور.

ولذلك اقترحنا إحباط محاولتهم بأمرين:

أولهما - بإرسال الحفاظ فى البلاد التى حاولوا فيها هذه المحاولة ليقرئوا الناس القرآن، فيحفظ فى صدورهم لكيلا يدخل التحريف عليهم.

وثانيهما - أن ترسل إليهم المصاحف المسجلة التى تتلى عليهم.

ومهما يكن من أمر عداوتهم، ومحاولاتهم، فقد ارتدوا على أدبارهم خاسئين، وعلموا أنه فوق طاقتهم وطاقة البشر أن يحرفوا كتاب الله، وقد ذكر الله تعالى أنه حافظه، ولن يخلف الله وعده «إن الله لا يخلف الميعاد»(١) وقد وعد، فقال كما تلونا من قبل : «إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون»(٢).

٢٢ – كان القرآن منار الدعوة، وحصن الدعاة.

فعندما اتجه الدعاة فى عصر الصحابة إلى الفرس والعراق ومصر، كان معهم القرآن، يعلمونه للناس ويحفِّظون الناس ما تيسر منه، كما كان النبى ﷺ عندما أرسل دعاته إلى يثرب، أرسل معهم القراء يقرئونهم القرآن.

وكان فى الأقاليم غير العربية تعلم أحكامه وتحفظ آياته، للدعاية الدينية أولا، ولنشر اللغة العربية ثانيا، فيمكن تدوين الدواوين بها، وقد صارت الإمرة للعرب، والولاة لهم.

أما الدعاية الدينية، فإنه كان يجب على كل مسلم أن يحفظ قدراً من القرآن يؤدى به عبادة الصلاة، وهى عمود كل دين، فلا دين من غير صلاة، كما قرر النبى ﷺ، وفوق ذلك فإنه سجل الأحكام الإسلامية ، وهو المرجع الأول لها ، فلايمكن أن يستغنى عن تعليمه وتحفيظه.

والقرآن بذاته كان دعوة للإسلام، لأنه بما اشتمل عليه من أخبار الأولين، وما فيه من شرائع وأحكام، وعلوم إنسانية، وتوجيه للكون ودراسته، بكل ذلك، وهو بعض مما اشتمل عليه من هدى وتوجيه داعياً للإيمان كان كافياً للدعوة إذا أحسن بيانه.

وإذا كانت الفيدا وهى كتاب عند البراهمة مؤثرة فى نفوسهم، فالقرآن، وهو علم وهداية وشفاء لما فى الصدور أشد دعاية وأقوى تأثيراً.

وقد عكف العلماء عليه يتدارسونه، ويتعرفون مبادئه وأحكامه، ولم يكن غريباً أن نجد كثيراً من الفرس فى صدر الإسلام قد انصرفوا إلى فهم القرآن الكريم، وكان كثيرون من تلاميذ الصحابة الذين لازموهم – من الفرس وغيرهم من الذين دخلوا فى الإسلام فى عصر الصحابة، ومن جاء بعدهم.

وإن تلاوة الصحابة للقرآن فى البلاد التى كانوا يفتحونها، كانت تجذب القلوب إليهم بترتيله، وجمال فواصله، ونغماته العربية، وحلاوته وتلاوته، فالقرآن كان هو وحده داعية للإسلام .

---

(١) آل عمران: ٢ (٢) الحجر: ٩

السنة وسيرة الرسول:

٢٣- أخذ الصحابة يعرفون بالرسول ﷺ، وينشرون ذلك فى وسط البلاد التى يفتحونها، ويذكرون سيرته قبل البعثة، وقد كان الأمين فى قريش، ويذكرون إرهاصات النبوة، وما كان عليه من أخلاق قبل البعثة ولازمته بعدها .

وسيرة النبى ﷺ أعظم دعاية للمسلمين، فلم يكن فى أخلاقه عليه الصلاة والسلام، إلا مايدل على صدقه حتى كان الأعرابى: يؤمن برسالته لمجرد رؤيته، وحتى لقد قال له أعرابى أأنت الذى تقول عنه قريش إنه كذاب، والله ما هذا بوجه كذاب.

ولما سأل هرقل عندما جاءه خبر الدعوة المحمدية بكتاب رسول الله ﷺ، ولقى أبا سفيان كان سؤاله عن سيرة الرسول ﷺ عن شخصه وأخلاقه، قبل أن يسأل عن حجته، وما جاء به.

سأله عن نسبه وعن خلقه وصدقه، وعما يتعلق بأسرته، وعن وفائه وعن أتباعه أهم الأغنياء الأقوياء، أم العبيد الفقراء والضعفاء.

وقد أعلن لمن عنده بيان أبى سفيان المسئول، أن صفاته هى صفات النبيين الصديقين، ولذلك نقول، إن سيرة رسول ﷺ أعظم دعاية للإسلام بعد القرآن.

وإنا نحسب أن سيرة الرسول وكمال عقله وخلقه، واستقامة نفسه، وسلامة مايدعو إليه، كل ذلك فى نفسه دعوة إلى الإسلام فى وسط غياهب الجهالة فى الماضى، وهو لا يزال القوة الداعية إلى الإسلام فى عصرنا الحاضر، وإنا نجد بعض الناس يسلمون إذا علموا السيرة النبوية وأدركوا عقله وبعده عن الأوهام والخرافات التى تسود العامة، وتستهوى تفكير السذج منهم.

وأما أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته، فإنها نعم الهادى إلى سواء السبيل، وإنه فى عصر الصحابة كان الاتجاه إلى السنة أمراً لابد منه، فقد كانت الحوادث تتوالى ويتعرفون حكمها، وما يقضى به، فكانوا إذا لم يجدوا حكما فى كتاب الله تعالى تعرفوا الحكم من سنته الشريفة غير مدخرين جهداً فى روايتها، وتنافس الثقات فى النقل عنه ﷺ واتخذ الصحابة الكرام تلاميذ لهم من الموالى الذين كانوا من الفرس وغيرهم فكانوا رواة الحديث عن رسول الله ﷺ فنافع مولى عبد الله بن عمر ، والحسن البصرى ومحمد بن سيرين وغيرهم كثيرون من الموالى الذين أسلموا على أيدى الصحابة بالدعوة الإسلامية

العامة فى الحروب، وخاصة بين الذين جئ بهم أسرى وأقاموا بالمدينة وارتضوا الإسلام، وتعلموا بتعليم الصحابة الكرام فأخذوه ممن شاهدوا وعاينوا، وكانوا من بعدهم كمن شاهدوا وعاينوا، وبذلك استقوا الإسلام من الينبوعين الدافقين الكتاب بما أخذوه من تفسير لمعانى كتاب الله تعالى من القرآن الكريم، وثانيهما ما رأوه من سنة رسول الله ﷺ، وكان الكثيرون منهم من رواة السنة أهل الثقة فيها.

وهكذا كانت الدعوة الإسلامية فى عصر الصحابة متجهة فى بعض نواحيها إلى تعليم الأسرى الذين يجيئون إلى المدينة، يعلمونهم الدين، ويصطفونهم بالمودة الواصلة الهادية، وجعلوا منهم مدرسة علمية، علموها التفسير وعلموها الحديث، وعلموها فقههم، وكان منهم رواة الفقه إلى من جاء بعدهم، وعلّموا بذلك أقوامهم وكان منهم دعاة مخلصون، ومفسرون وحكماء وعلماء نقلوا علم الإسلام إلى من جاءوا فكانوا حملة العلم، وكان لهم فقهه، ثم حملوا إلى بعض من هو أفقه منهم.

وكانت الدعوة متجهة إلى تعليم غير المسلمين فى الجهاد، فقد كانت الدعوة إلى الإسلام هى روح الجهاد، وما كان إلا لحماية الدعوة، لا لإكراه الناس على الإسلام، بل كان لفتح الطريق إلى الدعوة إلى الإسلام وحمايتها، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ومن آمن كان من المسلمين وكان أخاً فى الدين، والمسلم أخو المسلم لايظلمه، ولايسلمه، ولايحقره ولايخذله، فيكون عوناً للمسلمين فى الدعوة إلى الإسلام والجهاد فى سبيل الله تعالى.

ومن لم يدخل فى الإسلام طوعا واختياراً، ورضى بالإقامة بين المسلمين لايضار فى عقيدته.

الجهاد والدعوة إلى الإسلام

٢٤- لم يكن الجهاد فى الإسلام لغرض الغارات على الجماعات والأمم، ولم يكن فى أصل شرعته للغلب والقهر، فما كان محمد ليكره الناس على الإسلام فقد قال تعالى: «لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى»[1] وقال تعالى: «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»[2] ولم يكن محمد ﷺ ملكا، يفرض سلطانه على الناس بقوة الغلب والحرب ويفرض الحكم على الناس كرها، وإجبارا.

---

(١) البقرة : ٦   (٢) يونس : ٩٩

ولكن كان محمد ﷺ بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فكان عليه الصلاة والسلام يجاهد ليفتح الطريق أمام التبشير والإنذار، أى أمام الدعوة إلى الحق والتوحيد الخالص.

وكان لابد من الجهاد، لأنه ﷺ بعث رحمة للعالمين، وكان العالم فى هذه العصور يرزح تحت نير الملوك الذين طغوا فى بلادهم، لايهمهم إلا فرض حكمهم رضى الناس أو كرهوا، وكانت الديانات القائمة تفرض لهم الطاعة المطلقة وإن لم يرتضوها سامهم أولئك الهوان والعذاب.

ولذلك ما كانوا ليسمحوا بأن يدخل أرضهم من يدعو شعوبهم إلى عبادة الله وحده لايشركون به شيئا. وفى الديانات التى اعتنقوها بعد أن حرفت وغيرت وبدلت طاعتهم، ففرض سلطانهم بالقهر والغلب والسلطان، وما كانوا ليرتضوا دينا يفرض العبودية لله وحده لا لأحد من الناس أيًا كان وصفه ملكا قاهرا، أو متغلبا عاديا.

وفوق ذلك لقد أتى محمد بمبدأ المساواة الإنسانية بين الحاكم والمحكوم، والغالب والمغلوب، وأتى محمد بمبدأ العدالة فى كل شعبها، أتى بالعدالة فى تطبيق الشرع، وبالعدالة الاجتماعية، فكان لابد أن يقاومه الملوك بأن يحاجزوا بين هذه الدعوة المحررة للشعوب التى ترزح تحت نير حكمهم العاسف الفاسد.

ولذلك وقفوا دون هذه الدعوة: أرسل النبى ﷺ إلى كسرى، فمزق كتابه، وإلى هرقل فلم يرد، وأرسل إلى المقوقس، فرد رداً حسناً ولم يؤمن، وهكذا ...

ولكن لابد أن يبلغ محمد ﷺ، وأن يتقدم بها وقد وعده الله تعالى بأنه يعصمه من الناس حتى يبلغ دعوة ربه ورسالته إلى خلقه، وقد قال تعالى «يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس»(١) فإذا كان الملوك والطغاة لايمكنونه، فلابد أن يتمكن منهم، ويخلو له وجه الناس ليتلقوا دعوة الحق، ولهم الخيار فى أن يتبعوا محمدا ﷺ، أو يختاروا الجبت والطاغوت.

كان القتال إذاً والملوك بادروا بالاعتداء، فكسرى أرسل من يقتل الرسول، وهرقل قتل بعض المؤمنين، وما كان لمحمد وأصحابه من بعد أن يتركوا الطاغوت يتحكم ويحكم، بل لابد من فتح الطريق إلى الحق، ومنع الفساد والظلم والحكم بغير الحق، وبغير ما أنزل الله «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين»(٢).

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) البقرة : ٢٥١.

إذن فالقتال كان للدعوة، وليس للإكراه على الإسلام، إنما كان القتال لمنع الإكراه على البقاء على الكفر، ومنع الظلم والعدوان وإرهاق الشعوب من أمرهم عسراً، كما قال تعالى : «وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة، ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين»(١) .

ولم يكن القتال محبوباً للنبى ﷺ، إنما المحبوب المطلوب هو الدعوة إلى الحق مستشهدين فى سبيله، ولذا قال تعالى «كتب عليكم القتال، وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون»(٢).

كان المؤمنون كارهين للقتل وإزهاق الأرواح ولكن كانوا راغبين فى الدعوة إلى التوحيد وأن يخلو وجه الناس للحق والحرية والعدل، والإيمان بالله وحده الذى لاشريك له.

صورة الحرب الاسلامية :

٢٥- كانت تسمية الحرب الإسلامية جهاداً فيها إيماء إلى أنها ليست حرب قتل وغلب، ولكنها دعوة للحق، وحماية له من أن يعتدى عليه، وفتح الطريق ليصل إلى النفوس، وإزالة الحواجز المانعة، ولذلك كان على القائد الذى يقود جيش الإسلام إلى الجهاد، أن يدعو إلى الإسلام فإن أسلم من يدعوهم، فهم إخوان مسلمون علينا حمايتهم ولهم أخوتنا، وإن لم يسلموا عرض عليهم العهد على أساس إقامة الحق، ومنع الملوك من أن يظلموا رعيتهم، وأن يفتحوا الطريق للدعوة الإسلامية، ليتقدم الدعاة المهديون الدعوة إلى الإسلام يجيب من يجيب فيهتدى، ومن لايجيب فهو حر فى اعتقاده «من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها»(٣)

فإذا منع الأمير أو الملك تبليغ الرسالة فقد نقض عهده، فينبذ، ويعد ذلك خيانة، وإذا قام بظلم رعيته وإرهاقهم، فإنه يحل قتاله وينبذ عهده، ويكون خائناً للعهد، والله تعالى يقول «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء»(٤).

وقد اتفق العلماء من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم الفقهاء والمحدثون على أنه إذا اشترط المعاهدون من الملوك والحكام أن يترك أمر الرعية لهم، ولو طغوا وبغوا فإن الشرط يكون باطلا، لقول النبى ﷺ :« كل شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل ولو كان مائة

(١) البقرة : ١٩٣.
(٢) البقرة . ٢١٦.
(٣) الأسراء: ١٥
(٤) الأنفال : ٥٨.

شـرط»، وشـرط السكوت على الظلم باطل بحكم القـرآن والسنة، ولقـد قـال النبى ﷺ: «المسلمـون عند شـروطهم، إلا شـرطاً أحل حرامـاً أو حـرم حـلالا» والظلم حـرام، فـلايجـوز الاشتراط على أساس حله.

وإذا رفض الذين يحاربون الإسلام العهد بعد عرضـه، كان لابد من القتـال لمنع ظلم الرعايا أولا، ولمنع الفتنة فى الدين ثانياً، ولفتح الطريق إلى دعوة الحق ثالثاً.

ومع ذلك لايتقدم المؤمنون للقتال قبل أن يبدأهم العدو بالقتـال، وإذا بدأ لايتقـاتلون حتى يقتلوا قتيلا، فإن قتلوا عرض عليهم الإسلام أخيراً، ثم قاتلوا.

ولنترك الكلمة للسرخسى فى كتابه المبسوط، فهو يقول :

«عن أبى حنيفة عن علقمة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضـى الله عنهم كان رسـول الله ﷺ إذا بعث جيشـاً أو سرية أوصـى صـاحبهم بتقوى الله تعالى فى خاصـة نفسـه. ثم قـال: اغـزوا باسـم الله، قـاتلوا من كـفـر بالله، ولاتقـتلوا وليـداً، ولاتغلُّوا، ولاتغـدروا، ولاتمثلوا، وإذا لقيـتم عـدوكم مـن المشركين، فـادعـوهم إلى الإسـلام، فإن أسلمـوا فـاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، وادعوهـم إلى التحـول من ديارهـم إلى ديار المهاجرين، فإن فـعلوا، فاقبلوا منـهم وكفوا عنهم، وإلا فـأخـبـروهـم أنـهم كـأعـراب المسلمين يجـرى عليـهـم حكم الله الذى يجـرى على المسلمين، وليس لهم فى الفئ والغنيمـة نصـيب، فـإن أبـوا فادعـوهـم إلى إعطاء الجزية، وهذا هو العهد.

ونرى من هذا ألاً يقاتلهم إلا إذا منعوه من الدعوة، وقاتلوه وقتلوا من المسلمين، والنبى ﷺ يقول لعلى إذ أرسله إلى اليمن، ولمعاذ بن جبل !

«ولاتقـاتلوهـم، فإن أبوا فـلا تقـاتلوهـم حتى يبدءوكم، فـإن بدءوكم فـلا تقاتلوهـم، حتى يقتلوا منكم قتيلا، ثم أروهـم ذلك، وقولوا لهم : «هل إلى خير من هذه السبيل فـلأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»

ولقــد روى عن النبى ﷺ ألا يقـاتلهم إذا امـتنعوا عن الإسـلام والعهـد، بل نتركـهم، ويقيم القائد الصلاة مع جيشه، ويبيتهم ليفكروا، فان لم يفعلوا وتعدوا وقاتلوا منا قاتلناهـم.

وهذا مـا جـاء فى مبسـوط السـرخسى إذ قـال : «إنهـم يوجبون على القـائد إذا أبوا الإسلام أو العهد أو القتـال ألا يحارب فـور ذلك، بل يذهب إلى الصـلاة مع جيشه، حتى إذا

أتم الصلاة عاد فجدد الدعوة، وقالوا إنه يحسن ألا يقاتلهم فور الدعوة والسكوت بل يبيتهم (أى يتركهم يبيتون ليلة)، يتفكرون ويتدبرون ما فيه مصلحتهم»[1].

وإنه يستفاد مما ذكرناه أن الجهاد فى الإسلام للدعوة الحرة، لا للإجبار، ولا للإكراه على الإسلام، بل ليفتح الطريق أمام الدعوة الحرة إلى الإيمان.

ويستفاد أيضاً أنه لا يكون القتال إلا بعد أن يعتدى المخالفون بالفعل، ويقتلوا ليتحقق الاعتداء منهم، ويكون القتال من بعد ذلك لرد الاعتداء الذى ابتدأوه.

ويستفاد مع ذلك أن يستأنى بهم ليتفكروا ويتدبروا».

وإن الجهاد يفتح الطريق أمام دعوة مشروعة من النبيين والصديقين لأن الحق ليس سلبياً صامتاً، بل هو ناطق مبين، ولابد لبيانه أن يصل إلى الناس بحيث يؤمنون عن بينة، وإن كفر من كفر يكفر عن بينة، حتى يتحقق قوله تعالى، «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا»[2] ولايتحقق مغزى بعث الرسول إلا إذا تم التبليغ يحمله المبينون ابتداء، وقد حمله النبى ﷺ، وأوصى من بعده بأن يخلفوه فى حمله، وقد بينا ذلك من قبل.

الدعوة فى أعقاب الحرب:

٢٦- الحروب الإسلامية لاتنتهى بإثارة الأحقاد، فلا يقول الجيش المؤمن المنتصر ويل للمغلوب، ولكن يقول رحمة بالمغلوب، ورفقا به، لأنه لايقاتل الشعوب، إنما يقاتل معسكر السلطان فقط، لأن السلطان هو الذى يحول بين الشعب وبين الدعوة إلى الإسلام، ثم الدخول رغباً لارهباً لمن يريد اعتناقه، واتباع الهدى.

ولأن انتهاء الحرب بفتح باب الدعوة يكون العفو والمعذرة، ويدخل فى الإسلام من أراد، ويبقى على دينه من يريد.

ومن يبقى على دينه يحكم بالعدل والحق لابالسيف والظلم، فالظلم حرام أيًا كان المظلوم والعدل مطلوب أيًا كان من ينتفع به، وتكون من بعده المنازلة بدل المعاندة، وفرض بدل الصغار على المغلوبين، إذ بعد الحرب، لا غالب ولا مغلوب، بل مودة وحسن جوار وعدل، والله تعالى يقول : «وتعاونوا على البر والتقوى، ولاتعاونوا على الإثم والعدوان»[3] «ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى»[4].

---

(١) الجزء العاشر ص ٦. (٢) الأسراء: ١٥.
(٣) المائدة : ٢ (٤) المائدة : ٨

وإن العدل يكون مع الشعب الذى يكون قد رفع نير الذل والاستعباد والطغيان، وأما معسكر السلطان، فإنه يؤسر منه من يؤسر بعد الإثخان فى الأرض، واليأس من أن تكون لهم كرة وعدم توقعها من جيش الإيمان، ويتحقق قوله تعالى : «حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها»[١].

وإنه كان المتبع فى عهد الراشدين أن يرسل الأسارى إلى المدينة حيث مقر الحاكم، وهنالك يتصرف أمير المؤمنين مع الأسرى بما يراه مصلحة للمسلمين ولهم، فكان يمن على من يرى المن، ويسترق من يرى استرقاقه معاملة بالمثل لأنهم كانوا يسترقون أسرى المؤمنين فكان حقاً على المؤمنين أن يسترقوهم، وقد أمرنا الله تعالى أن نرد الاعتداء بمثله، فقال تعالى «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله، واعلموا أن الله مع المتقين»[٢].

ويقول تعالى: «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»[٣]

ولو أنه جرى عرف الحرب، على ألا يسترق إنسان قط فى حرب أو سلم فإنه لايحل الرق حينئذ، إذ يكون ذلك اعتداء وليس رداً للاعتداء، وينطبق عليه النهى فى قوله تعالى: «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين»[٤]

وأولئك الأسرى يعمل المسلمون على ربطهم بالمودة مع المؤمنين يتزوجون نساءهم، ويدخلون عليهن بملك اليمين.

ولقد كان من السبايا نساء من كبار الناس، فى فارس، فلم يتركهم الخلفاء يمتهنٌ بين الأعراب والعرب، بل اختاروهن لكبراء المؤمنين ذوى النسب الرفيع كعلى بن أبى طالب وغيره ليرفعوا من خسيستهن، فيكون بذلك المزج الجنسى، ووراءه الائتلاف النفسى والروحى.

ثم من أولئك الأسرى من اتجهوا إلى المعرفة، ليستعيضوا عن انكسار الحرب، بسلطان العقل حتى كان من أولئك علماء للإسلام، وفقهاء فى أحكامه، ومبينون لشرعه.

ولذلك كان من أكثر التابعين الداعون للإسلام، وورثة علم الصحابة من الموالى، وهم أولئك الذين آمنوا وحسن إيمانهم وانصرفوا إلى فقه الإسلام والدعوة إليه.

---

(١) محمد:٤ (٢) البقرة : ١٩٤
(٣) النحل: ١٢٦ (٤) البقرة: ١٩٠

عمل الموالى فى الفقه وعلوم الإسلام :

٢٧- منع الموالى فى عصر الراشدين والأمويين من أن يتولوا أمرا من أمور السياسة والحكم، وفيهم قوة ذكاء، وعلوم ومعرفة، فاستعاضوا عن سلطان العلم وهوأقوى أثراً، وأبعد ذكراً.

فكان أكثر علماء العصر الأول من الموالى الذين دعوا إلى الإسلام فأجابوا، أيستوى فيهم من جرى عليه الأسر والرق، ومن لم يجر عليهم، فالجميع قد سموا بالموالى، فكان منهم العلماء والهداة والمرشدون، دعوا أقوامهم فأجابوا، ونقلوا العلم الإسلامى إلى كل من يجهله من أهل الأقاليم المختلفة، وكان منهم مع العلم الدعاة.

وأنه فى عصر بنى أمية و العصر العباسى الأول كان العرب متعصبين لعربيتهم ينكرون تفوق الموالى عليهم فى الدعوة إلى الإسلام، وينفسون عليهم علمهم وفقههم.

جاء فى العقد الفريد لابن عبد ربه «قال لى ابن أبى ليلى، قال لى عيسى بن موسى، وكان ديانا شديد العصبية للعرب: من كان فقيه العراق قلت: الحسن بن أبى الحسن قال: ثم من؟ قلت: ابن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: موليان. قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار. قال: فما هؤلاء؟ قلت: موال، قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر، ونافع بن أبى نجيح. قال: فمن هؤلاء؟ قلت: موال. فتغير لونه ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأى وابن أبى الزناد. قال: فما هؤلاء ؟ قلت: من الموالى، فاربد وجهه، ثم قال: فمن فقيه اليمن؟قلت: طاووس وابنه وابن منبه، قال فما هؤلاء؟ قلت: من الموالى، فانتفخت أوداجه وانتصب قائما، قال: فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراسانى. قال: فما كان عطاء هذا، قلت مولى، فازداد وجهه تربداً، واسود اسودادا، حتى خفته. ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول، قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى، فتنفس الصعداء، ثم قال: من كان فقيه الكوفة؟ فو الله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتبة، وعمار بن أبى سليمان، ولكن رأيته فيه الشر، فقلت: إبراهيم النخعى، والشعبى قال: فما كانا؟ قلت عربيان، فقال: الله أكبر، وسكنجأشه».

هذا كلام نقله صاحب العقد الفريد، وهو يدل على أمور ثلاثة:

أولا – أن الصحابة بعد الفتح الإسلامى لفارس وسوريا ومصر والعراق قد قاموا بالدعوة الإسلامية فى البلاد المفتوحة، حتى أسلم أهلها، وكانوا يسمون الموالى فى مقابل العرب من المسلمين، وإنهم حسن إسلامهم، وكان دخولهم فى الإسلام اختياراً وبرغبة، ولذلك درسوه بعد أن وازنوا بينه، وبين ما كانوا عليه من ضلال، واشتروا الهدى بالضلالة فربحت تجارتهم وكانوا مهتدين.

وثانيها– أنهم كانوا تلاميذ الصحابة وتلقوا علمهم ونشروه وعلموه الناس، فكانوا محل الدعاة إلى الإسلام، وخلفوا أساتذتهم من الصحابة، وأحسنوا القيام بها.

وثالثها– أنهم بلغوا فى المكانة العلمية قدرا نفسه عليهم العرب أنفسهم.

حسن الجوار وأثره فى الدعوة :

٢٨– (أ)– إن أخلاق المسلمين الاجتماعية والأخوية التى تربوا عليها فى ظل الإسلام كانت تجلب المحبة لهم، والائتلاف بهم، واتخاذهم قدوة، وإن ذلك يجعل العقيدة تسرى إلى نفوسهم من قلوب محبة ومحبوبة، فما كانوا يشعرونهم بالغلب، بل كانوا يضعون فى نفوسهم أنهم إخوة متحابون، وليسوا غالبين يتحكمون، فكانت هذه الأخلاق مقربة مدنية، وذلك فوق ما فى الحقائق الإسلامية من معانٍ تدركها العقول، وإن البراهين لاتدنى إلى الإيمان وحدها، بل لابد أن يكون معها إلف وائتلاف.

فكان أمام غير المؤمن أو المسلم أمران يجذبانه إلى الإسلام، أولهما تآلف النفوس، وثانيهما براهين العقول، فيدخل الإيمان إلى قلبه من غير تردد ولاعوج.

وإن المؤمنين كانوا متمسكين بأوامر النبى ﷺ فى الرفق بالناس، فلقد كان النبى ﷺ يقول : تآلفوا الناس وارفقوا بهم، وكان يقول : يسروا ولاتعسروا وبشروا ولاتنفروا .

(ب) وإن حسن المعاملة والإحسان إلى الجار، وقد أوجد الفتح جواراً بين المسلمين وغير المسلمين سواء أكان أولئك الجيران من العرب، أم ممن دخلوا فى الإسلام من غير العرب، فكانت هذه المعاملة مع العلم بأن الإسلام دعا إليها فى كتابه الكريم، إذ قرن الإحسان بالجار بالإحسان إلى الأقربين، وقرن الإحسان بعبادة الله وحده لايشركون به شيئاً، فقال تعالى: «واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، وبذى القربى، واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب وابن السبيل، وماملكت أيمانكم، إن الله لايحب من كان مختالا فخوراً»[1].

(١) النساء : ٦٣

وإن ذلك بلا ريب يقرب النفوس، ويؤلفها، وإذا تآلفت النفوس سهل وصول الحق إليها، ودخل إلى القلوب من أبوابها، وخصوصاً إذا كان العقل يؤيد ما يدعون إليه، فإن المعاملة الحسنة تدنى، والجفوة تبعد، والقول الطيب يهدى، وغيره ينفر، ولقد قال تعالى : «وهدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط الحميد»[1] ويأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يقولوا قولا حسناً، فقال تعالى : « وقولوا للناس حسناً»[2].

(جـ) وإن القدوة الصالحة تهدى، وتجعل الجميع يهتدون بأهل الخير، وخصوصاً إذا كان ماهم عليه دينا قويما يؤيده العقل، ويعليه، فما من أمر جاء فى الإسلام إلا كان موافقاً للعقل، جاعلا للعقل سلطاناً فى تفكيرهم، وألا يتخذوا إلههم هواهم، فهو يناقض الأهواء الجامحة، ويدعو إلى أتباع العقل، وقد نهى عن الاتباع من غير عقل ولاهدى ولاسلطان مبين، ونعى على المشركين أنهم يقلدون من غير تفكير، واقرأ قوله تعالى : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون »[3].

ومع أن الإسلام كان مقنعاً بذاته، داعياً العقول مخاطباً لها - مع هذا يجب أن نفرض فرضاً آخر، وهو أن الإسلام كان قوياً، وكان المسلمون هم الأقوياء والحكام منهم، فلابد أن يقلدهم المحكومون بهم، وتتحقق نظرية ابن خلدون التى تقرر أن الضعيف مشغوف دائماً بتقليد القوى ويظن أن كل ما فيه من أحوال وصفات من أسباب قوته وسر عزته وعظمته.

وإنه بمقتضى هذه النظرية لذلك الفيلسوف الاجتماعى يفرض أن ناساً من المحكومين ابتغوا الإسلام تقليداً للأقوياء وهم حكام المسلمين، فكانت على هذا قوة المسلمين وسلطانهم من أسباب اتباعهم، ولكنها ليست وحدها السبب، لأن الإسلام لم يدع إلى الخضوع من غير تفكير، بل دعا إلى التفكير، ومن المقررات العلمية أنه لايصح التقليد فى الاعتقاد، لأن الاعتقاد يجب أن يكون إذعاناً، وأن يكون نتيجة تفكير وتدبر واتباع للبرهان فإن الإيمان كما يعرفه العلماء هو العلم الجازم المطابق للواقع عن دليل مع الإذعان والتصديق القلبى، فإذا فرضنا أن ناساً اتبعوا المسلمين مأخوذين بقوتهم، فإنه يجب أن نفرض أن ذلك التقليد جذبهم إلى دراسة الإسلام، ونبذ ما كانوا يعتقدون، وحيث درسوا وجدوا الحق المبين، فآمنوا صادقين فى إيمانهم.

---

(١) الحج : ٢٤ (٢) البقرة ٨٣ (٣) البقرة :١٧٠

ولذا لاتجد أحداً من هؤلاء خرجوا من الإسلام بعد أن دخلوا فيه وذاقوا بشاشته، إلا أن يكون منافقاً، لم يدخل حتى يخرج، ومن هؤلاء الزنادقة الذين ينتمون لأصل فارسي، وأرادوا الكيد للإسلام بادعاء الدخول فيه وهم يريدون إدخال الآراء المشككة المفرقة، ولذلك قرر الفقهاء : أن من يرتد عن دينه يستتاب، فإن تاب قبلت توبته وعمموا ذلك الحكم، ولكن استثنوا الزنادقة، لأن الاستتابة فرصة ينتهزونها ليحققوا ما يرون من إرادتهم التفريق والتشكيك فى الإسلام، ونشر الآراء الباطلة، ودس المفاسد بين المسلمين.

وما كان الزنادقة إلا عدداً ضئيلا جداً، ولايصلون إلى نسبتهم لجماعة المسلمين بمقدار واحد فى كل ألف، بل إنهم دون ذلك بكثير.

وإن استمساك المسلمين من غير العرب بدينهم الذى ارتضوا وهو الإسلام دليل على أنهم اختاروه، وما أجبروا عليه، وما اختاروه لمجرد التفكير واتباع القوى، ولكن اختاروه لأنهم اقتنعوا به، وأدركوا حقائقه، ووازنوا بينه وبين ما كانوا عليه من أوهام انحرفت بها الديانات السماوية عن مواضعها، ورأوا أن كل ما فيه يوافق العقل السليم، ورأوا ما رآه الأعرابى عندما آمن بمحمد، وقد سئل: لم آمنت به ؟ فقال : «ما رأيت محمداً يقول فى أمرٍ افعل، والعقل يقول : لاتفعل، ومارأيت محمداً يقول فى أمرٍ لاتفعل، والعقل يقول افعل»

وبذلك يتبين أن المسلمين فى الأراضى التى فتحها الإسلام ما دخلوا فى الإسلام رهباً، ومادخلوا تقليداً للأقوياء، ولكن دخلوا رغباً واقتناعاً وإدراكا.

العدل ومقامه فى الدعوة

٢٨-م- الإسلام دين العدالة، وإذا كان لكل دين سمة فسمة الإسلام العدالة، فإذا كانت الكلمات المأثورة عند بعض ذوى الأديان تقول : ارحموا أعداءكم، فالإسلام يقول اعدلوا مع أعدائكم، ويقول «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى»[١] وقد تلونا هذا النص السامي من قبل، وإنه شعار الإسلام.

بلغ حكيم العرب أكثم بن صيفي أمر محمد ﷺ ودعوته الحق، فأرسل ولده يسألون النبى ﷺ عما يدعو إليه، فتلا عليهم قوله تعالى : «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون»[٢] وقد قال العلماء إن هذه الآية أجمع آية لمعاني الإسلام.

(١) المائدة : ٨ (٢) النحل : ٩

لما رجع الولد لأبيهم تلوا عليه الآية، فقال الحكيم العربى :« إن هذا إن لم يكن دينا فهو فى أخلاق الناس أمر حسن» وإن العدل فى ذاته نور يهدى، ولايشغف الناس إلى اتباع رجل، كما يشغفون إلى اتباع رجل عادل لأنهم يرون استقامة نفسه ولايرون إلا طيبا فى أمره، ولايظنون فيه الظنون، فيتبع قوله، ويهتدى بهديه.

ولقد جاء الإسلام نوراً فى ظلمات الجاهلية، كان الأمر فى البلاد التى تحيط بالبلاد العربية أمر الأمراء والملوك الذين يتوارثون الناس، وأموالهم وأنفسهم، كما يتوراث المالك ما كان يملكه أبوه، فهم إن كانوا أحراراً، وليسوا عبيداً فيما يظهر من عامة أمورهم ليسوا مالكين لأنفسهم، إنما يملكها الملك الذى ورثهم، كما يرث الشخص ما كان يملك أبوه.

فإذا قتل الملك إنساناً من رعيته، فدم المقتول هدر، لا دية له.

فإذا جاء الإسلام، وقرر أن الدماء متساوية، وأنها جميعها حرام، ورأى الذى يعيش فى رعية ملك كهرقل وتحكمه فى الشام ومصر، وكسرى فى فارس أنه لاحق له قبل الملك أو الأمير أو الإمبراطور – وجد ديناً يدعو إلى العدل، ويجعل لنفسه حرمة كحرمة دم الملك، فإنه بلا ريب يختار لنفسه، ويختار الإسلام دين البرية.

اقرأ لغير المسلم قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا، فإن الله كان بما تعملون خبيرا(١)»

واقرأ لغير المسلم الأعجمى الذى كان يحكمه كسرى أو قيصر قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون»(٢).

هؤلاء المؤمنون الصادقون وهم فى ديارهم يرون أنفسهم بين أمرين: أحدهما حكم طُغيانى فرضه الملوك عليهم بحكم أنهم مورثون لهم كما تورث الأشياء، وبين حكم يجعلهم سواء، ويجعلهم أعزة لا استعلاء لأحد عليهم، والدين الجديد رد إليهم كل حق مسلوب، إنهم عقلاء فلابد أن يختاروا العدل، ويتركوا الظلم ولايناصروه، وأن يختاروا العزة ويتركوا الذلة، ويختاروا الحرية، ويتركوا العبودية للجبارين والطغاة.

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) المائدة : ٨

ولم يكن العدل الإسلامي في أول الفتح كلمات تتلى في القرآن، أو تردد على اللسان، بل كان عملا قائماً، وتنفيذاً شاملا، فالصديق خليفة رسول الله ﷺ ينادي في أول توليه: القوي منكم ضعيف حتى آخذ منه الحق والضعيف منكم قوي حتى آخذ الحق له، والفاروق مضرب المثل في العدل يقول في سبيل إقامة الحق لآخذن بصماغ القوي حتى آخذ الحق منه، والفاروق يرى أميراً من أمراء الفساسنة يضرب فتى من فتيان العرب، فيشدد في ضرورة القصاص منه، ويقول في قوة : لقد سوى الإسلام بينهما، فإما أن يعفو المضروب، وإما أن يقتص منك، ولايرضى بغير ذلك بديلا.

والفاروق ذاته يضرب رجلا خطأ فيعطيه الدرة ليضربه أو يعفو عنه.

ولكن الفتى يأبى أن يضرب لمقام إمرة المؤمنين وهيبة للفاروق، ويأبى العفو أيضاً لألم الضرب، والفاروق يبيت ليلتها مهموما محزونا، ويبدو ذلك في وجهه مغبراً مكفهرا في الصباح فيسأله، قائلا : لعل ذلك من أثر ما كان بالأمس، فيقول الرجل الذي لم يَفرِ فَرْيَهُ في الإسلام، نعم، فيقول الشاب: الآن عفوت. أي عدل يصل إلى أعلى من ذلك من بشر؟

ويقول الفاروق لعماله، «ماأرسلتكم لتضربوا أبشار الناس، والله لا أوتى بعامل ضرب رعيته في غير قصاص إلا أقصصتهم منه، فيقول عمرو بن العاص، أئن ضرب رعيته تأديبا تقتص منه، فيقول الفاروق مشتداً مؤكدا: والله لأقتصه منه.

يرى غير العرب من المسلمين، ذلك ويرى من لم يدخل الإسلام منهم فيوازنون بين ما كانوا عليه من إهدار دمائهم، وإباحة أموالهم، وأنه لاحق لهم أمام حكامهم، كما أنه لاحق للعبد على مالكه في زعمهم، ويرون العدل الإسلامي، ويرون مع ذلك أن الأرقاء لهم حقوق على مالكيهم، وأن المالك إذا قتل عبده قتل به، إذ يقول النبي ﷺ : «من قتل عبده قتلناه، ومن جدعه جدعناه» ويقول عليه الصلاة والسلام «من ضرب عبده فكفارته عتقه».

يرون العدل واضحاً قوياً في القول المأثور عن النبي ﷺ، وفي العمل الذي يرونه، ويعاينونه في غير التواء، ولا اعوجاج.

بل إنهم يرون الكرامات للرعية موفورة، قال عمرو بن العاص لأحد رعيته: يا منافق، فقال له: والله ما نافقت منذ أسلمت. فشكا إلى عمر، فأعطاه الإمام عمر كتابا، قال فيه:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاصي.

لقد ذكر لى فلان أنك نفقته، وما نافق مذ أسلم، فإذا جاءك كتابى فاجلس مع الملأ، واجعله يضربك أسواطا. فجاء الرجل إلى الملأ فى المسجد قال لهم: من سمع الأمير نفقنى، قالوا: كلنا سمعه، فقرأ عليهم الكتاب.

فقال المنافقون حقا الذين يطوفون حول الحاكم: أو تضرب الأمير؟ فقال الرجل متحديا: ليس لأمير المؤمنين هنا أمر، فطأطأ عمرو بن العاص رأسه، وأعطاه السوط، وقال له اضرب، فهز الرجل السوط بيده، وقال : الآن عفوت.

انظروا إلى العدالة، وتربية العزة فى النفوس والكرامة، وخير له أن يعزل كل يوم والياً بدل أن يتركهم يهينون الكرامات، ويضربون الأبشار.

العدل مع أهل العهد :

٢٩- قد يقول قائل إن ذلك عدل مع العرب، فهل يعم العدل غير العرب لأنهم الغزاة الفاتحون، ولأنهم يجاملون، كما تجامل الأمم الحاضرة الفاتحين من غزاتها، لأنهم عدتها فى الحرب، وقوتها فى الاستيلاء والسلطان، فلهم فضل عدل خاص بهم، وفضل تكريم.

ونقول فى الجواب عن ذلك القول إن العدل يتمتع به البر والسقيم على سواء، فإنه يتمتع بالعدل الإسلامى، المخالف ولو محاربا، والموافق على سواء، وقد تلونا من قبل الآيات الدالة على ذلك، وهى نصوص صريحة لاتقبل ضربا من التأويل ولافساداً فيه تحويل لمعانيها عن مقاصدها، وأفعال الصحابة ، ومن تبعهم بإحسان توضح ذلك وتؤكده.

(أ) فقد سبق أن بيَّنا ولى الأمر إذا عقد اتفاقا مع ملك أو أمير غير مسلم وأجاز له أن يعامل رعيته كما يريد بالعدل أو غير العدل يكون الاتفاق باطلا، وقد أقمنا الدليل على بطلانه فيما أسلفنا من قول، فلا حاجة لتكراره الآن.

(ب) وإن معاملة الذميين تدل على العدالة الكاملة بين المسلمين وغيرهم، حتى إننا نرى أنهم لايحرمون من حقوقهم التى كانت لهم من قبل، بل إنهم يأخذون حقوقاً لم تكن لهم من قبل، وإن الإسلام، وهو دين المساواة بين الناس ومنع الطبقات، لايطفف أحداً من حق له إلا أن يكون قد أخذ ماليس له كالأشراف من الرومان، والرؤساء من الفرس، فإن دين المساواة الذى يقرر المساواة العادلة بين الناس يمنع طغيان طبقة على طبقة، والناس جميعاً أمام القانون العام والخاص سواء.

فالإسلام إذا تدخل وأخذ بعض الحقوق التى يزعمها من كانوا يتحكمون فى الناس، فلأنها ليست حقوقاً، ولكن هى اعتداء، والإسلام العادل يمنع الاعتداء فى كل صوره وأشكاله.

(حـ) والقاعدة المقررة فى الإسلام التى استنبطها الفقهاء من أقوال الرسول ﷺ ونصوص القرآن – هى: لهم مالنا وعليهم ما علينا، لايضارون فى دينهم، ولاتحكم أسرهم بغير دينهم الذى ارتضوا، وآثروا البقاء عليه، لأن الإسلام لايكره أحداً على الدخول فى دين لا يريدون الدخول فيه، فالله تعالى، يقول: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى[1]»، ولنشر بكلمات موجزات إلى أحكام الذمى، ومنها نرى أنها عادلة لايفرض الإسلام عليهم أمراً فى أسرهم أو اعتقادهم.

الذمى

٣٠- الذمى هو الذى يقيم مع المسلمين على أن يكون له ما لهم وعليه ماعليهم، وهو يقيم مع المسلمين بعقد يقال له عقد الذمة، وهو يعقد مع الفتح الأول لأى إقليم يفتح، يتولاه أمير الحرب يوجب على الدولة واجبات، يتولى ولى الأمر أداءها ويفرض حقوقاً للذمى يجب على الدولة رعاية تنفيذها.

وقد كان يحدث أن ولى الأمر يعقد عقداً عاماً بأن يعلن أن من يرضون بالإقامة بين المسلمين لهم مالهم، وعليهم ماعليهم، بحيث يلتزمون ما يلزم المسلم مما يجب عليه، فيلزم بالمعاملات الشرعية، ويحرم من المعاملات ماحرم الإسلام، وتقام عليه الحدود ويقتص منه إلى آخر الأحكام الشرعية.

وفى نظير هذه المعاملة الحرة العادلة، عليه أن يلتزم باحترام المسلمين، واحترام ما يقدسه المسلمون، فلا يجترح حرمات المساجد، ولايسب النبى ﷺ، ولايسب أحداً من أصحابه ولايطعن فى الأحكام الإسلامية، ولايحاول أن يعتدى على مسلم أو عقيدته.

فإنه إن فعل ذلك نقض عقد ذمته، وصار حربياً يباح دمه، وما بقى على ذمته فهو مصون الحرية، والكرامة، وتجرى عليه الأحكام بالعدل والإنصاف، وقد بينًا مراعاة الأئمة الراشدين لذلك مراعاة تامة، وروينا قول النبى ﷺ : «من آذى ذمياً، فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته».

---
(١) البقرة:٢٥٦

والذميون خالطوا المسلمين، وعاشروهم، وكان الود موصولا معهم إلا من خرج عن العهد ونبذ الذمة، والله من ورائهم محيط.

الدعوة الإسلامية فى العصر العباسى

(أ) الدعوة بالآحاد:

٣١- إن الدعوة الإسلامية كانت تسير على المنهاج المستقيم فى عصر الصحابة وعصر التابعين، وكان مع الجيوش الإسلامية كتاب الله تعالى، والعدل، والخلق الإسلامى، فكان الفتح، وكانت الدعوة الإسلامية القويمة، وكان دخول الناس فى الإسلام أفواجاً، وكان الناس يؤمنون بالله رغباً لارهباً، بلا إغراء ولا استهواء، كما يفعل بعض النصارى فى مصر فى هذا الزمان، فقد استخدموا فى الماضى الإكراه بكل أساليب التعذيب والتنقيب عن القلوب والآن يتخذون الاستهواء النفسى بما يسمونه غسل المخ، وهو إكراه، بل أشد من الإكراه، وإذا كان المكره كالآلة فى يد من أكرهه، ولاتكون نتيجته إيماناً، فمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان لم يتغير اعتقاده ولم يتغير قلبه، فإن الاستهواء ومسح المخ يجعله آلة طيعة فى يد من استهواه، وغسل مخه، يغير نفسه وكيانه، فيؤمن بالباطل، وهو لايعرف أنه باطل.

وإنه كان للدعوة الإسلامية التى كانت تتجه إلى القلوب من غير استهواء ولاغسل للأفكار، بل كانت بالبرهان والموازنة بين الحق والباطل، بين ما فيه صلاح الناس، وما فيه فسادهم، وبين قضية العقل المدرك، والنفس المؤمنة، وبين الأوهام، وتكشف للحقائق وسترها.

قام آحاد المسلمين بهذا البيان، وذلك بالاختلاط بين المؤمنين وغيرهم من النصارى والمجوس والصابئين، والمشركين، وغيرهم، والقرآن إمام المسلمين، وهو النور الهادى، والحق المبين.

وإذا كانت الجيوش الإسلامية، تفتح الحصون، وتزيل محاجزات الملوك فإن وجه الشعوب يخلو للدعاة للإسلام من المؤمنين، وإذا كان الحكام لايعنون بالدعوة، ولا يرعونها حق رعايتها، فإن المؤمنين من العرب وغيرهم كانوا يعنون بها آحاداً وجماعات كما سنبين، ولكن الآحاد كانوا أبعد أثراً ابتداء، فهم بتخلقهم بأخلاق القرآن، وبائتلافهم مع الناس من غير استعلاء، بل يعاملونهم كإخوان لهم ينشرون الإسلام بالقول والعمل، حتى كانت الفرس وخراسان وما وراءهم من بلاد وراء النهر والديلم من المسلمين بدعوتهم.

وكثرة كبيرة من الهند، كانت مسلمة بالدعاية الآحادية والجماعية، وإذا تركنا الشرق إلى العرب وجدنا دعوة الآحاد وراء الجيوش الإسلامية تدعو، وتبشر الناس بالرسالة المحمدية.

وذلك بطرق ثلاثة :

أولها – الاختلاط والائتلاف، فالأليف يقرب أليفه ويدنيه.

ثانيها – التبيين، وذلك من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مع تأليف القلوب والموعظة الحسنة، كما قال تعالى :«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن»(١).

ثالثها – إزالة الأوهام التى تسيطر على الناس فيما يتعلق بالأوثان، وقد كان الوثنيون ولايزالون أسرع استجابة، وأسهل اقتناعا من غيرهم؛ لأن عقولهم على الفطرة والفطرة السليمة أقرب إلى الاستجابة إلى الحق، والإيمان به.

ولذلك نجد الكثرة الكاثرة من الأفريقيين مسلمين مع الدعاية النصرانية الملحة التى تستحل كل شئ، إلا ما يكون حقاً منيرا، وتتذرع بكل الذرائع من طب، وإعانة على الزراعة، وتستعين بطرق غير محللة خلقاً وديناً كالخمر والاستهواء، والإسلام وحده يسير من غير ذرائع، ولامجادلات، وذلك أنه لا أوهام فيه، إنه يدعو إلى الله وحده، فالقلوب والعقول تصل إليه.

ب- التجارة والدعوة الآحادية.

٣٢- كان التجار المؤمنون فى اليمن وحضرموت، يسيرون بمتاجرهم منبعثين من شطر البلاد العربية ميممين شرقى البلاد ومغاربها ومع تجارتهم الدعوة المحمدية.

يعطون بضائع المال، ويأخذون مثلها، ومعها بضائع هى النور وهو الإسلام، وقد جابوا الآفاق على البضاعة المادية والهدى المحمدى.

وكان يسهل الطريق أن الوثنية كانت مسيطرة على الشعوب التى يعاملونها فيهدونها، ثم يتعاملون معها بنور الهداية.

فكانت بضاعة النور رائجة، وبضاعة المادة رائجة أيضاً.

---

(١) النحل : ١٢٥

وبالتجار الحضارمة آمن أكثر شرق أفريقيا، ولاتزال آثارهم باقية فى شرق أفريقيا، فعلى أيديهم أسلمت الحبشة إلا قليلا، وإن كان المسلمون فيها مضطهدين تحت عين المسلمين وبصرهم.

وكذلك الصومال، وسائر شرق أفريقيا، والتجار المسلمون هم الذين نشروا الإسلام فى أندونسيا، وغيرها من بلاد الشرق الأقصى.

والصين ابتدأ فيها الإسلام بفتح قتيبة بن مسلم لما حولها، وجاء إليها من أندونيسيا وغيرها.

٣٣- والرحالة المسلمون كابن جبير، وابن بطوطة وغيرهما من الذين كانوا يرحلون طلباً للحديث من المحدثين عن النبى ﷺ ابتداء، ثم صارت الرحلة هدفاً مقصوداً يقصدون إليه، يتعرفون فيه أحوال المسلمين، ويبينون الإسلام بين غير المسلمين.

وكان منهم من يعقد دروساً علمية يحضرها المسلمون وغير المسلمين، وفيها بيان الحقائق الإسلامية، والأخلاق الدينية.

وكان للصوفية أثر كبير فى هذه الدروس حتى قيل إن مجلس الدرس لسيدى عبد القادر الجيلانى كان يحضره ألوف من الناس، وفى بعض مجالسه كان يحضره نحو أربعة آلاف، وقد أسلم كثيرون من مجالس عبد القادر الجيلانى كما سنتكلم عن ذلك عند الكلام على المتصوفة وأثرهم فى الدعوة إلى الإسلام.

والقول الجلى أن الدعوة الآحادية كان لها فضل كبير فى نشر الإسلام والدعوة إلى الإسلام.

وفى الحق إن الإسلام انتشر بالدعوة الآحادية، من الذين أخذوا بداعى الوجوب العينى، وقد قلنا أن الدعوة إلى الإسلام، فرض عين، وفرض كفاية تقوم به الجماعة فى ظل الدولة، وتحت رعايتها وتوجيهها.

ولكن من وقت أن ضعفت الخلافة الإسلامية ثم ذهبت ولم تقم الدولة بالفروض الكفائية الخاصة، فلم يعين الخليفة قوماً للدعاية للإسلام، يوجههم، ويزودهم بالمال والعلم، ولم يقم أحد بالفرض الكفائى، وذلك لثلاثة أسباب.

أولها- أنه لم تكن دولة إسلامية جامعة تحمل نفسها تبعات إسلامية، إنما كانت تعلن إسلامها من غير أن يكون لها عمل للإسلام، وإن كان منهم من يشجع بعض العلماء للتأليف،

والبحث والدراسة، فلم يكن منهم فيما نعلم من يؤلف جماعة للدعوة إلى الإسلام ويزودها بالمال فى سبيل هذه الدعوة، ويضع لها المناهج التى تسير عليها.

ثانيها- أنهم كانوا فى نزاع مستمر للغلب، وأن يكون لكل سلطان حوزة من الأرض أكثر من حوزة الآخرين، وكانت الحرب بينهم مستمرة وحب الغلب هو المسيطر على تفكيرهم، وبذلك كان بأسهم بينهم شديداً.

ثالثها- أن الغارات الصليبية قد شغلتهم كثيرا ثم جاءت بعدها الغارات التترية، واستمرت هذه الغارات عدة قرون وما نجت منها إلا وقد خرجت منهوكة ممزقة، فلم تكن هناك دعوة منظمة يحميها الأفراد ويمدونها بالعون وبالمال والرجال.

لهذه الأمور ما كانت هناك دعوات منظمة تشرف عليها الدولة، لأنه لم تكن دولة قوية، أو دعوة تشرف عليها الإمارات المختلفة لأنها شغلت بنفسها عن دينها ونسيت أنها دول قامت على الإسلام، فله عليها حق الرعاية وإقامته على وجهه.

والعلماء نسوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعكفوا على دراسة فلسفة الإسلام، ووجوبه من غير أن ينفذوه.

ولكن الآحاد كانوا يقومون بذلك طالبين ما عند الله، حتى ابتأست النفوس وقنعت بحكم الحاكمين وظلم الظالمين، فنسيت ما يجب عليها لكى تستمر الدعوة إلى الإسلام موصولة غير مقطوعة إلا من عصم الله.

غير العرب فى الدعوة إلى الإسلام :

٣٤- وإنه إذا كانت أحداث الصليبيين والتتار أثرت فى العرب من ناحية الدعوة الإسلامية، فإنه إذا كان قد أفل نجم الإسلام بينهم فى الدعوة إلى الإسلام، فقد بزغت له نجوم أخرى فى غير العرب، فى البلاد الإسلامية الأخرى.

وإنه قد ينجم من الشر خير، فإن الشر المحض لاوجود له فى الدنيا، كما أن الخير المحض نادر الوجود أيضا، فقد نجم عن غارات التتر والصليبيين أمران جليلان لهما شأن فى الإسلام، ورفع مكانته :

أولهما- أن الإسلام انتشر بين التتر، فقد كانوا وثنيين، فلما اختلطوا بالمسلمين بالفتوح ورأوا ما عليه المسلمون من رقى فى الفكر والاعتقاد اعتنقوا الإسلام، وكان منهم

مسلمون وإن كانوا لم يتركوا الحرب والنضال والفساد فى الأرض ولكن دخلوا فى الإسلام، وكان منهم مسلمون، وإن كان بعضهم كالأعراب الذين أسلموا، ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم، واختلطوا، ثم صار فيهم إيمان من بعد.

الأمر الثانى - أن الصليبيين تأثروا طريق المسلمين، ونفذ إلى نفوسهم وعقولهم وإن لم يؤمنوا به، ولكنهم تأثروا طريقه، ولذلك كان فيهم بعد ذلك ما يسمى الإصلاح الدينى، وقد قبس من الإسلام كثيراً، وكتاب مارتن لوثر زعيم هذا الإصلاح من يراجعه يجد كثيراً من تعاليم الإسلام، وخصوصاً ما يتعلق بالعقود والمعاملات (راجع كتاب الإسلام وأباطيل خصومه للمرحوم عباس محمود العقاد).

وإنه إذا كانت الدعوات الإسلامية فى الحروب الصليبية والتترية قد ضعفت بين العرب، فقد ظهرت فى الهند، والبلاد الشرقية؛ ظهرت فى باكستان وأندونسيا بعد أن أمنت وظهرت فيها دعوات للإسلام قوية مستمرة. كان يقوم بها مسلمون من الهند يخرجون للدعوة الإسلامية يحملون زادهم على ظهورهم، ويتحملون المشاق الشداد فى الدعوة إلى الإسلام، حتى ظهر المسلمون فى فلبين، وجزر الهند الشرقية وغيرها، وعلى أيديهم أسلم كثيرون من الزنوج الأمريكان، و فشا الإسلام.

وقد وجدنا جماعات فى الهند وباكستان نفرت للدعوة إلى الإسلام، وكانوا يخصصون من جهودهم وأموالهم للدعوة إلى الإسلام عشرها، فالعاملون فى الدولة يقتطعون من أوقات خدماتهم عشرها، وكأنها مقادير زكاتهم بزيادة عن مقادير الزكاة.

ويذهب المؤمن منفرداً يقوم بدعاية الإسلام فى كل أرض مر بها معتمداً على الله لاينى ولايكف، ولقد حضرنا بعض اجتماعات هذه الجماعة فى لاهور سنة ١٩٥٨.

ولقد أسلم الكثيرون من الناس والأقوام على أيدى هؤلاء، وكان الدعاة يقومون بهذا فرادى، والجماعة هى التى توزع الآحاد، وكل وطاقته، وكل وعمله منفرداً.

ولاتزال هذه الجماعات قائمة منبثة فى الهند وباكستان، وأندونسيا، وهم الذين يقومون بأمر الله تعالى ونهيه، ولاينفكون عن الدعوة إليه، وبهذا يتبين أنه إذا كانت الدول التى تسمى

نفسها دولا إسلامية قد قصرت فى حماية دينها أولا، وحماية المسلمين ثانياً، والقيام بحق التبليغ ثالثاً فإن المسلمين آحاداً، وأحياناً بجماعات تنظم وتوجه- كما رأينا فى باكستان - قد قاموا بحق التبليغ فى الجملة، وإن لم يبلغوا الغاية الكاملة، ولكنهم قاربوا بعد أن سددوا، ولهم فضل على القاعدين الذين لم يقوموا بشئ، وخصوصاً أولئك الذين يلبسون لباس العلم الإسلامى، ويظنون أنهم فى الذروة، فهم لايحسون بالواجب عليهم، ومعهم من يقولون إن الإسلام علم فعليهم أن يطلبوه هم، وإن كان العلم شأنها، فعلى الذين وكل إليهم شأنها أن يصححوا هم، وليس على القاعدين ممن درسوا العلم أن يصححوا.

الفرق والطوائف

٣٥- قلنا إنه منذ أشرق الإسلام، وأضاءت الأرض بنوره، والتبليغ به قائم، والدعوة مستمرة، وكانت سهلة، لأن أخلاق المسلمين كانت تدعو، وعدالتهم كانت تعم، فيعشو إلى ضوئها الناس، والخلفاء حريصون على أن يكون الإسلام هو المقصد الأول، حتى كثر الدخول فيه، وحتى خشى بعض الذين يدبرون المال، على بيت الخراج والجزية أن يخلوا، فمنهم من فكر فى ألا يرفع الجزية عمن يسلم، فغضب عمر بن عبد العزيز، وقال : «إن اللهَ بعث محمداً هاديا، ولم يبعثه جابيا» ثم نما الإسلام وانتشر بالتبليغ المنظم الهادى.

وإن بعض الفرق الإسلامية عندما نشأت الفرق، وتحقق خبر النبى ﷺ : بأنه تتفرق أمته على ثلاث وسبعين فرقة - كانت تضع من مبادئها الدعوة الإسلامية، وأدخلته فى باب الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وهؤلاء هم الذين سموا فى تاريخ الفكر الإسلامى المعتزلة.

المعتزلة والدعوة الإسلامية.

٣٦- كان من مبادئ المعتزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقد كانت مبادئهم خمسة : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، وأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر، ويصح أن يطلق عليه اسم المسلم، والمبدأ الخامس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقد قرروا وجوبهما، والأخذ فى تنفيذ أمر الله فيهما، ومن قصر فقد ارتكب إثما، فعلى المؤمنين

نشر الدعوة الإسلامية، والقيام بتبليغ الرسالة، وهداية الضالين وإرشاد الغاوين، وكل بما يستطيع، فذو البيان ببيانه، وذو القلم بقلمه، وذو السيف بسيفه؛ لكى يمنع الفتنة فى الدين، ولكى يزيل الحاجزات التى تحول بين الداعى والمدعوين، وتمكين التبليغ، والناس بعد أن يتبين الرشد من الغى، بين أن يتبعوا أو يمتنعوا، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما ربك بظلام للعباد، ولا إكراه فى الدين.

وقد كان عمل المعتزلة فى الدعوة الإسلامية فى ناحيتين :

أولاهما- الدعوة إلى الإسلام، وخصوصاً بين علماء الفرس وغيرهم من غير المسلمين، فإنهم كانوا يتخذون المنطق والعقل سبيلا لتفكيرهم وجدلهم فكانوا يدعونهم إلى الإسلام، ويحلون المشاكل التى تثار، وقد تولى ذلك كبيرهم، فالحسن البصرى، وقد كان ينهج نهجهم، وعدوه منهم، فى الطبقة الثانية.

وكان واصل بن عطاء وهو تلميذ الحسن ينشر الدعوة بلسانه وقلمه، فله كتاب ألف مسألة وكانت دعوته للعلماء.

والناحية الثانية - الرد على أهل الأهواء من الزنادقة وغيرهم الذين كانوا يشككون فى الحقائق الإسلامية، وكانوا أحيانا يدسون ما يثير الريب، ولايظهرون، وأحيانا ينكشف أمرهم ويظهر وإن أرادوا إخفاءه، فيشف ثوبهم عن حالهم، ويظهر أمرهم.

والمعتزلة يتتبعون الآخرين، فهم يجادلون من ينكشف أمره حتى يرجع أو يسكت، ويتتبعون ما يظهر من الآراء الفاسدة، وإن لم يعرف صاحبه.

وقد كان من بعض الرافضة آراء تؤدى إلى الانحراف، وتمكن غير المسلمين من الهجوم على الحقائق الثابتة، فكان المعتزلة يترصدونهم، ويردونهم ويمنعون آراءهم من أن تصل الناس.

وقد فرق واصل تلاميذه فى الآفاق كما قام زميله عمرو بن عبيد بذلك، وكان أطول عمراً، ولقد اشتد أمر الزندقة والزنادقة فى عصر أبى جعفر المنصور، وابنه المهدى، وكانت الفلسفة اليونانية والهندية وغيرهما قد ترجمت، ودرست وجاءت محملة بالعلم وبأوزارها، فجاء السوفسطائية، ونشرت فلسفة الشك وحمل المعتزلة عبء مناهضة هذه الآراء الهدامة لكل حق، ولكل دين.

وأخذ الزنادقة ينشرونها، ويروجونها، وتفاقم أمرهم فى عهد المهدى، وقام رجل هو المقنع الخراسانى يهاجم المسلمين فى الميدان، والزنادقة يبثون فى الشعب روح شك، ويهدمون العقائد هدما.

وقد تجرد المهدى لمقاومة الأمرين فقاتل المقنع الخراسانى حتى هزمه فى ميدان القتال.

وفى الميدان الفكرى جرد المعتزلة لمقاومة الزندقة حتى هزمها هى الأخرى بمجادلات المعتزلة، ودعوتهم إلى الإسلام والدفاع عنه.

وجاء الرشيد بن المهدى، وقد انطفأت إلى حدٍّ فتنة الزندقة والزنادقة، وإن كانت الجرثومة لم تجتث، فأطفئ اللهيب، ولكن مازالت النار مدفونة بالخوف.

وكان يميل إلى الأثر والحديث، ولذا أبعد المعتزلة عن القرب إليه، وسجن منهم من سجن، ولكن النار المدفونة ابتدأت تظهر، والزندقة التى لم تجتث ابتدأت تنتأ رءوسها كرءوس الشياطين فاحتاج إلى من يدفعها، فدعا الفقهاء والمحدثين، ولم يكونوا أهل ذلك الميدان، فبحث عمن يقف فيه، وقيل له هم المعتزلة، فجردهم، وعادوا يحاربونهم، كما ابتدءوا.

هذا موقف المعتزلة من الدعوة الإسلامية، وهو موقف مبنى على ماعندهم من وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويدخل فى عمومه الدعوة إلى الإسلام، ورد شبه الذين تزيغ قلوبهم أو يريدون بث الزيغ فى المؤمنين.

ونحن إذ نذكر المعتزلة فى هذا المقام بالتقدير لانوافقهم فى كل مايعتقدون، بل نوافقهم فيما هو حسن فى ذاته لايقبل جدلا، ومخالفه يعد مخالفاً لأمر عرف من الدين بالضرورة.

الزيدية والدعوة الإسلامية

٣٧- الزيدية فرقة من فرق الشيعة، ولكنها معتدلة ترى أن الإمامة تكون من أولاد على كرم الله تعالى وجهه، سواء أكانوا من ذرية الحسن أم كانوا من ذرية الحسين، ويرون الإمام بعد النبى ﷺ هو على، وهو معرّف بالوصف، وليس معيناً بالاسم، وأنه تكون للأفضل من

ذريته من فاطمة بشرط أن يخرج داعياً لنفسه، ويجيزون إمامة المفضول، ولذلك أجازوا إمامة الشيخين أبى بكر وعمر، وإن كان علىٌّ أفضل فى نظرهم.

وهم أتباع الإمام زيد بن على زين العابدين الذى خرج على طغيان هشام بن عبد الملك، وقتل رضى الله عنه سنة ١٢٢ هجرية بالكوفة بعد أن خذله أهل العراق، كما خذلوا جده الحسين، وقتله الأمويون، وقد قتل بالنبل، كما قتل جده الشهيد ابن الشهيد وأبو الشهداء الحسين رضى اللهّ عنه، ولعن من قتله، ومن كان سبباً فى قتله.

وقد كان أكثر من خرج على العباسيين من بعد الأمويين من الزيديين.

ولذا كان الظاهرون من البيت الزيدى يتتبعهم العباسيون، ويفر هؤلاء من وجوههم، وكانوا يفرون إلى خراسان والديلم وبلاد الجبل.

وكان ممن يقتفى آثارهم، ويتبع أمرهم الناصر الكبير من ذرية الإمام زيد، وقد عاش فى القرن الثالث، وتوفى فى مطلع القرن الرابع سنة ٣٠٤.

قد هاجر الناصر هذا إلى بلاد الديلم والجبل، كما أشرنا وكان أهلها وثنيين، وقد فر بدينه إليهم.

فأخذ يدعوهم إلى الإسلام، ويعلمهم شرائعه وأحكامه، فكان يبشر ويدعو، وأبلى فى ذلك بلاء حسناً، حتى أسلم أكثر الوثنيين بدعايته، وبحكمته فى الدعوة، وحتى دخلوا جميعاً فى الإسلام، وتولى هو الإمرة عليهم، وكان إماماً فى هذه البقعة، وقالوا إنه كان يحيى الإمامة الزيدية من الركود بعد توالى الاضطهاد واستشهاد الكثيرين من آل البيت الزيديين.

ولقد قال فى ذلك الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل :«لم ينتظم أمر الزيدية حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش، فطلب مكانه ليقتل، فاختفى واعتزل إلى بلاد الديلم والجبل، وهم لم يتحلوا بدين الإسلام، فدعا الناس إلى الإسلام على مذهب زيد بن على، فدانوا له بذلك وبقيت الزيدية فى تلك البلاد ظاهرين، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة، ويلون أمرهم، (انظر الملل والنحل للشهرستانى جـ ١ ص ٢١١).

وإن هذا يفيد أن الزيدية بسبب اضطهاد العباسيين لأئمتهم، وفرارهم من هذا الاضطهاد، قد اتجهوا إلى الدعوة إلى الإسلام أولا، ثم بالمذهب الزيدى ثانياً، فأثمر ذلك

الاضطهاد تلك الثمرة، وعاد الزيديون بخير مافعلوا، وعاد المضطهدون بإثم ما فعلوا، وتلك قسمة عادلة.

لقد أسلم على أيدى الناصر، ومن جاء بعده ملايين من الناس الذين كونوا إقليماً إسلامياً كثير السكان، كثير العلماء، مخلصاً أشد الإخلاص تابعاً لمن دعاه وهداه.

ولايهولنك أن الزيدية كانت المذهب المسيطر، فإن المذهب الزيدى أقرب المذاهب إلى مذاهب الجماعة.

وهو يأخذ بالسنَّة كلها، يأخذ بما فى الصحيحين، وغيرهما من كتب السنة ويأخذ بآراء كثيرة من المذاهب الأربعة.

ومن المقرر فى هذا المذهب الزيدى أن مالم يرو فيه شئ عن الإمام زيد يؤخذ فيه برأى الإمام أبى حنيفة، ولذا كانت فيه آراء كثيرة مقتبسة من المذهب الحنفى ثم المذهب الشافعى.

ومهما يكن من الأمر فى المذهب الزيدى، فإن أئمة الزيدى عندما اضطهدوا لم يقضوا أوقاتهم فى خمول المنفيين المضطهدين، ولكن قضوه فى عمل المتقين المهديين فانصرفوا إلى الدعوة إلى الإسلام فى تلك الأراضى الوثنية، وجاء نشر مذهبهم، وليس منحرفا، ولاخارجا على الإسلام، تبعاً لذلك.

ويكفى هداية وتوفيقاً أن أسلم على أيديهم عشرات ألوف الألوف من المسلمين. والمذهبية أخذت تذهب شيئا فشيئا حتى صاروا الآن فى ضمن الحنفية، وقد علمت أن المذهب الحنفى كان مرضياً فى المذهب الزيدى، ثم غلب، فصاروا أحنافا.

الصوفية

٣٨- التصوف أصله من الزهادة، والانصراف للعبادة من غير أن ينقطع عن أسباب الحياة وطلب الرزق، وقد دخل الإسلام من عدة مسالك.

أولها - وجود الزهادة والزهد فى الحياة ومتعها، مكتفياً بالحلال منها، وذلك أعلى الزهد، فقد قال الإمام أحمد رضى الله عنه مجيباً من سأله عن الزهد فقال هو طلب الحلال،

والاقتصار عليه، ومن الزاهدين من اتجهوا إلى الحرمان وفهموا أن قطع النفوس عن الملاذ حلال، وحرمانه هو قطع للنفس وهو الزهد، ولكنه الذى نهى النبى والقرآن عنه فقد قال تعالى : «يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم»(١).

وثانيها- فلسفة هندية تقوم على رياضة النفس على التحمل، والانقطاع عن الملاذ.

وثالثها- ما كان يظهر من بعض الديانات من الحرمان، وسرى إلى المسلمين من بقايا الديانات القديمة، ومع أن الإسلام نهى عن الرهبانية لأنها من ابتداع النصارى كما قال تعالى « وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل، وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون»(٢).

وقد سرت بعض مبادئ الرهبانية إليهم، بمقتضى الاختلاط، ولبقايا الديانات القديمة في نفوسهم، ولقد قيل إن الصوفية كانت تقليداً أو اتباعاً لأهل الصفة الذين كانوا يعيشون فى مسجد رسول الله ﷺ في عهد الصحابة، لا مأوى لهم غيره، ولا ملجأ لهم سواه.

ومهما يكن مصدر الصوفية، وسبب شيوعها بين المسلمين، فإنا نجد فيها نوعا من التشبه بالرهبنة، وإن لم تكن مماثلة لها من كل الوجوه، فإن أهل التصوف يتزوجون ولاينقطعون عن الدنيا انقطاع الراهبين، ولايموتون موتا حكميا، كما يعبر القانونيون، إذ يعدون الرهبنة موتا حكميا.

ولاشك أن الذين يعكفون فى الخانقاه، ويقيمون فيها يشبهون الرهبان فى الأديرة، وإن كان من سكان الخانقاه من يتزوجون، وينجبون الأولاد.

وفى الحق أن الصوفية لها جانبان : جانب الخير، وهو الاتجاه إلى الله تعالى والاستجابة له، وأن يكون قلب المؤمن عامرا بالإيمان، ذاكر الله تعالى دائما، مشرقاً بنوره يطلب من الدنيا ما يقوى به على عبادة الله تعالى، وطلب ما عنده في الآخرة، فلا ينصرفون عن الدنيا ولكن يطلبونها على أن خيرها مطية الآخرة، وطريقها.

والجانب الثانى وهو ظاهر فى بعض المتصوفة وهو الانقطاع عن الدنيا وذلك وجه لايريده الإسلام، ويظهر ذلك فى الانصراف إلى الذكر الذى يكون معه حركات.

---

(١) المائدة :٨٧.　　　(٢) الحديد : ٢٧

ومهما يكن نوع التصوف، وغايته ونهايته فإنه وجدت جماعات صوفية يرأس كل جماعة شيخ من شيوخ العلم والتصوف، والجهاد في سبيل الله، فتعددت الطرق الصوفية، وكل واحدة تتبع شيخا جديراً بالاقتداء، وله في الإسلام والدعوة إليه فضل وذكر، فالشيخ عبد القادر الجيلاني له علم غزير، وإرشاد وتوجيه وحكمة، وإبراهيم الدسوقي له علم مدون، وتوجيهات شديدة في التقوى والزهادة، وأحمد البدوي له بعض جهاد في الحروب الصليبية، وله توجيهات محددة، والسيد أحمد الرفاعي من أهل العلم والتوجيه والإرشاد.

وأحمد التيجاني له فضل كبير والسيد محمد بن علي السنوسي له فضل علمي وعملي وتوجيهي في الإسلام، ودعوته إلى الإسلام هو والتيجاني نشرت الإسلام في غرب إفريقية ووسطها وجنوبها مع ما كان للجيلانية من أثر.

وإذا كان إسلام شرق إفريقيا على يد الحضارمة والتجار، فإنه في وسط إفريقيا وغربها للجيلانية والتيجانية والسنوسية فضل عظيم في نشر الإسلام، ولنذكر ذلك بفضل من القول، ونشير في إيجاز.

الشعبذة والتصوف

٣٩- لانريد بالتصوف الذي شاع في عصر المماليك في مصر والشام والذي كان أهم مظاهره الشعبذة، والصياح والتمايل بما يسمونه الذكر في المجالس، والخروج بالمواكب والأعلام في الطرق، واللعب بالثعابين، وابتلاع النيران، وغير ذلك مما كانت تظهر به فرق مختلفة وطوائف تسير في الطرقات وتضع النار على أجسامها لتنطفئ، زاعمين أن النار لم تحرقهم، وقد طلوا أجسامهم بما يمنع حرقها، وقد ادعوا أنهم ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعي، ولنترك القلم لابن تيمية يصف حالهم، وإن كنا لا نوافق على نظرته إلى التصوف عامة، فقد قال رضي الله تبارك وتعالى عنه لهم عندما أرادوا أن يصنعوا أمامه وفي حضرة نائب السلطان ما يصنعون أمام التتار، وقد كانوا جاثمين في ربوع الشام، وهم يقاومونهم قال : من أراد أن يدخل في النار، فليدخل أولا الحمام، وليغسل جسده غسلا جيدا، ويدلكه بالخل والأشنان ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقاً، فقال شيخهم: نحن إنما تنفق أحوالنا عند التتار، فانكشفت بذلك حالهم، وهو ممالأتهم للتتار فاشتد النكير عليهم لفعالهم،

وممالأتهم للتتار أعداء الوطن الشامى، بل أعداء الأوطان العربية والإسلامية قاطبة، إذ لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام، وإن أمثال هؤلاء المشعوذين لانزال نطلع على ناس منهم ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعى وهو منهم براء.

ولكننا إذا قلنا أن الصوفية لهم أثر فى الدعوة إلى الإسلام لانقصد هؤلاء ولا أشباههم، وإنما نقصد الذين اتخذوا العبادة شعاراً للتصوف، ولم يتخذوها للشعبذة، واستدرار أموال الناس، أو العبث بالعوام، وحشو الأمة.

التصوف

٤٠- قبل أن نخوض فى الدعوات الصوفية للإسلام، نذكر بإيجاز حقيقته ليتبين ما فيه فائدة للدين، وما هو خارج عليه، ليمكننا أن ننتفع بالصالح، كما نفع من قبل، ولنرحض الأوساخ الذى علقت به وشوهت اسمه عند كثيرين من الغيورين على الإسلام، وقد أشرنا فى ماضى قولنا إشارة مجملة تكاد تكون مبهمة إلى مداخل الصوفية فى المجتمع، ولكن لابد أن نبين بإيجاز بعض ما أجملنا، ونكشف ما أبهمنا بكلمات موجزة أيضاً، ولانخرج من الإجمال إلى الإسهاب، ولكن نجمل فى بيان مصادر التصوف، فنقول :

نشأ التصوف روحياً، وإن كان عند بعض الناس أخذ مسلكا شكلياً فظهرت الأمور التى أشرنا إليها آنفاً، ولقد نشأ من ينبوعين صافيين :

أولهما – هو انصراف بعض العباد المسلمين إلى الزهد فى الدنيا والانقطاع للعبادة، وقد ابتدأ ذلك فى عصر النبى ﷺ ، فكان من الصحابة من اعتزم أن يقوم الليل متهجداً، ولا ينام، ومنهم من يصوم ولا يفطر، ومنهم من انقطع عن النساء، فلما بلغ أمرهم النبى ﷺ قال : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»، ولقد نهى عن الرهبنة، وقال ﷺ: رهبانية أمتى الجهاد.

وبذلك بين النبى ﷺ معنى الزهد، وهو طلب الحلال، وألا يحرم ما أحل الله كما تلونا من قبل آيات الله تعالى فى ذلك.

ولكن بعد أن انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومضى عصر الصحابة والتابعين

دخل في الإسلام من كان في نفوسهم أثر من المذاهب القديمة الذين كانوا يحسبون تعذيب الجسم لتقوية الروح نوعا من العبادة.

ولكن مع شيوع هذه الأفكار لفظتها المبادئ الإسلامية، وبقي معنى الزهد الذي قرره الإمام أحمد فيما أسلفنا من قول : « الزهد الاقتصار على الحلال».

وبالجمع بين هدى النبي ﷺ، وما جاء من منازع تحارب الحلال، كان التصوف الإسلامي الذي لايقطع عن الحياة، ويربي الروح والقلب، ويوجهها إلى الله تعالى، وكان المزج الكامل بين متعة الحلال، وفطم النفس عن الشهوات.

هذا الينبوع إسلامي خالص، وما خالطه من منازع أخرى، قد رحضها الإسلام وأبعده العلماء، فكان في دائرته المعقولة.

والينبوع الثاني للتصوف، وهو ليس إسلامياً، وإن تلاقى في بعض نواحيه مع الأخلاق الإسلامية التي دل عليها القرآن والسنة، وما كان عليه الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم، وذلك الينبوع هو ما سرى إلى المسلمين من فكرتين: الأولى فلسفية، والثانية من الأديان القديمة كالنصارى وغيرهم ممن انتحلوا نحلا باطلة.

والنظرة الأولى لهذه، ترينا أنها زندقة نبرئ التصوف الإسلامي منها تبرئة مطلقة، وإذا كانت قد جرت على أقلام أو أقوال بعض من نسب لهم التصوف، فهي زور من القول على الإسلام وأهله.

ولنتكلم عن الفكرة الفلسفية الأولى فهي نبعت بين الإشراقيين من الفلاسفة، وهم يرون أن المعرفة تقذف في النفس بالإشراق الروحي، ومنه تكون الرياضة الروحية والتهذيب النفسي.

وإن هذا بلاريب ينبوع صاف يتجه بالنفس إلى التهذيب الروحي والاتصال بالله، ولكن اختلط بهذا النظر الفلسفي ماجاء عن الديانات السابقة كاليهودية والبرهمية والنصرانية من تعذيب الجسم لتطهير الروح في زعمهم، واختلط بهذا عنصر ثالث، وهو ما سمي بوحدة الوجود، وجاء تبعاً لوحدة الوجود الحلول وهو حلول الله في نفوس بعض المخلوقين وذلك كفر وإلحاد.

ومنهم أو كلهم من غلبت عليه نظرية الإشراق وزال من نفوسهم ماعداها .

ومهما يكن فإن هذه الأفكار تبلورت، ولفظ بعضها بعضاً، فكان التصوف الذى ظهر قوياً فى القرنين الرابع والخامس ومن بعدهما السادس الهجرى، ثم ظهر أشكالا لاروح فيها فى القرن السابع والثامن وتوارثت أجيالنا الأخيرة هذه الأشكال.

والجوهر كان قائما مع الأشكال فى القرون الأولى، وبه كانت الدعوات الدينية المخلصة، واستمر الجوهر قائماً إلى اليوم، وإن اختفى وراء المظاهر، وتريد جماعات إحياءه.

وإنا نعتقد أن مذهب الإشراق الروحى هو الجوهر فى الفلسفة الصوفية الإسلامية فيه، وقد رحض عن جسمه فكرة الحلول، وتعذيب الجسم لتطهير الروح الذى سرى إلى المسلمين من البرهمية والبوذية، والانقطاع عن الحياة الذى سرى إلى التصوف من الرهبانية النصرانية.

ولكن بقى له مع الإشراق ناحية قريبة من وحدة الوجود، وهى ناحية الشوق إلى الله تعالى ومحبته.

ولذا نرى أن صوفية الإسلام يلتقى فيها أمران : أحدهما الإشراق والثانى الشوق إلى الله تعالى ومحبته، والمحبة قدر مشترك بين الصوفية المسلمين أجمعين كالإشراق، وقد راض بعضهم نفسه على المحبة، واتخذ منها سبيلا للاتصال بالله تعالى، وذلك منزع ليس فيه حلول، وليس فيه ما يسمى بوحدة الوجود، بل هو إشراق النفس بنور الإيمان وامتلاؤها بمحبة الله، ورياضة النفس على محبة الله، حتى يكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، وحتى يكون كل شئ فى نفسه، فلا يتحرك حركة عن حركة إلا فى سبيل رضاه ومحبته، وحتى يحب الشئ لايحبه إلا لله.

التربية الصوفية

٤١- انتهينا من ذلك إلى أن الإشراق الروحى، والشوق إلى الله تعالى ومحبته وامتلاء النفس بهذه المحبة هى سمة التصوف الإسلامى، وهو الجامع بين أهل التصوف، وإن ذلك يجئ بعضه فيضاً من الفيوضات الربانية وبعضه من التربية والرياضات الروحية، ولذا

اتجهوا فى معالجات النفس لتمتلئ بالإشراق والشوق المحب إلى الله تعالى، ولتكون على اتصال دائم بالله تعالى، ويعمر القلب بذكره.

اتجهوا فى معالجة ذلك إلى أمر عام، وأمر خاص، أما الأمر العام فهو قراءة أوراد هى أدعية مقربة إلى الله تعالى، يضرعون فيها إلى الله تعالى، ويحاولون بها أن يقربوا منه بالمداومة على هذه الأوراد.

ومن أعلى الصوفية درجة، وأقربهم بالحق رحماً من يجعل ورده القرآن يتلوه ويتدبر معانيه، وهو أثبت الصوفية قدما، فالقرآن أعظم ما يقرب العبد من ربه، فقد قال تعالى: «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»(١).

وإن الأوراد من كتابة بعض الشيوخ المتبتلين، وأنى يكون كلامهم بجوار كلام الله تعالى، وأنى للصوفية فى هذا العصر إلى أن يكون هذا وردهم الأول والأعلى، وإن تلاوته هى التى تربى الشوق إلى الله، وتلقى فى القلب بمحبته، فإن من يقرؤه، إنما يحدث الله تعالى بكلامه العزيز، وأنه يوجد الإشراق فى النفس، إذ تحف ملائكة الله تعالى عند تلاوته فيشرق العقل والنفس والقلب بنوره.

هذا هو العلاج الأول لتربية النفس وهو علاج عام، أما العلاج الخاص فهو التربية الخاصة بين الشيخ ومريده أو تلميذه، وهى تربية نفس المريد أو التلميذ، لتكون مستعدة للإشراق الروحى، والشوق والمحبة، وقد لزم هذه التربية الخاصة أمران:

أولهما- ملازمة المريد لشيخ يتبعه ويوجهه، ويشرف عليه فى تربية قلبه ونفسه ويقدم له غذاء روحياً، بملازمته فى غدواته وروحاته، وإنهم يعدون تلك الملازمة مع المشاركة الوجدانية أقوى الفرائض، وأنه يكون بين الشيخ والمريد استهواء روحى يوجه نفسه، ويقمع حسه، فيعكف على القلب يوجهه، وعلى النفس يهذبها ويهديها، وإذا استقامت النفس أشرقت الحكمة على القلب، وقذف الله تعالى فيه بنور يضئ بين يديه السبيل فى مضطرب الحياة ومتنازع الأهواء.

---

(١) الزمر: ٢٣.

ثانيهما– أن النفوس متى زكت، وامتلأت بالإشراق والمحبة تكشف المستور وتبين بين يديها الخبئ من الأمور.

وإن هذه الطريقة فى تربية النفس وتهذيبها وتقوية اتصالها بالله تعالى قد يحتاج إليها كل مصلح دينى أو خلقى، فإن ملازمة رجل ممتلئ بنور الحكمة وله قوة نفسية، وفيه خلق حكيم وقلب سليم، مما يهذب الشباب، ويجعل من الشذاب والخارجين على الجماعات من يهتدون ويسلكون الطريق المستقيم.

٤٢– وقبل أن ننهى ذلك الموجز فى التصوف والصوفية نشير إلى أمرين :

أولهما– أن الشيوخ الذين كانوا يروِّضون الناس على المحبة والشوق إلى الله تعالى بدا من عبارتهم أن المحبة إن حققت، فإن العاصى والمطيع يكونان على سواء، مع أنه إذا تحققت المحبة لايكون هناك عاص من المحبين، إذ كيف يحبه ويعصى، إنه إن لم يطع تكليفا أطاع محبة وتقربا، وطلبا للرضوان.

ومع ذلك بدت منهم عبارات يدل ظاهرها على التساوى بين العصيان والطاعة فى أدعيتهم، فيقول المرسى أبو العباس فى دعاء له:

«إلهى، معصيتك تنادينى بالطاعة، وطاعتك تنادينى بالمعصية، ففى أيهما أخافك، وفى أيهما أرجوك، إن كان بالمعصية قابلتنى بفضلك، فلم تدع لى خوفاً، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك، فلم تدع لى رجاء، فليت شعرى، كيف أرى إحسانى مع إحسانك، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك».

ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى بعض أدعيته :

« إلهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك، ولك المنة على، وإن ظهرت المساوئ فبعدلك، ولك الحجة علىّ».

هذه نظرات متصوفة صادقين قد وصل بهم القرب من ربهم ومحبته فى قلوبهم إلى أن الله تعالى، الجميع أمامه سواء، ويغالى بعضهم فيقول إنه إذا كانت الشريعة قد فرقت بين المطيع والعاصى، فالحقيقة قد قررت أنه أمام الله تعالى لافرق. ولكن من يصل إلى الحقيقة؟. ولذلك كانت الشريعة أولى بالاتباع، لأن الوصول طريقه واضح المعالم، بيِّن

المسالك، ولأن الله تعالى جعل الطاعة لشريعته ولرسوله، طريق محبته، فقد قال تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»(١).

بل نستطيع أن نقول: إننا لانصل إلى الحقيقة عن طريق الشر.

وإنهم ليقررون أن المعصية ثم الاستغفار منها تقرب ولاتبعد، وإن تقريب الاستغفار أكبر من تبعيد العصيان، ويقولون إنه ورد عن النبى ﷺ أنه قال :

«لو لم تذنبوا فتستغفروا لخلق الله قوما يذنبون فيستغفرون» ويقول ابن عطاء الله السكندرى:إن معصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت ذلا وافتخارا.

ثانيهما - أن منهاج العامة من الصوفية ليس على هذا النحو الذى سلكه الخاصة، ذلك أن أتباعهم لم يبلغوا ذلك المبلغ، ولم يدركوا من الحقائق ما أدركوا، فهم فهموا أن لامعصية ولاطاعة، وأنه يكتفى بالمحبة ويدّعونها لأنفسهم، ومنهم من خلع الربقة.

ووجد من ادّعى أنه الشيخ المتبوع فى الصوفية، ولم يمنعه ذلك من أن يتناول الممنوع، ثم اجترع اللذات، ونال من الموبقات من غير حريجة دينية تمنعه، ولانفس لوامة تدافعه، بل اتخذ التصوف ستاراً يستر به مآثمه، ومنهم من كان يدعى مع ذلك الولاية.

ومن العامة من لايعرف من التصوف إلا مظاهره ومن حقائقه إلا أشكالها، ومنهم من كان يشيع أنه يكفى اتباع شيخ من الشيوخ أو ولى من الأولياء، حتى تكون الخوارق، فالنار لاتحرقهم والأفاعى لاتلدغهم، وقاموا بأعمال شعبذة تضل العقول، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

٤٣- هذه هى الصوفية ابتداء، وانتهاء، ونحن إذا قلنا: إن التصوف حمل الدعوة الإسلامية أو كان منهم من حملوها لانقصد العامة، ولا الذين اتخذوها أشكالا ومظاهر ومواكب تخترق الطرقات، إنما نقصد الصفوة المختارة منهم التى صفت نفوسها وربت مريديهم وتلاميذهم على الخير، والعمل، كالشيخ عبد القادر الجيلانى، وأبى الحسن الشاذلى، والمرسى أبى العباس، وابن عطاء الله السكندرى، والشيخ أحمد التجانى، والسيد محمد بن على السنوسى، فأولئك كان لهم مقام فى الدعوة إلى الإسلام.

(١) آل عمران ٣١

وإننا إذا تكلمنا فيمن يدعون إلى الإسلام من الصوفية لانقصد الذين قاموا بالشعبذة والتعرض للأفاعى، كما لا نتصور أن منهم الذين يقولون بتساوى الحسنة والسيئة، ولا الذين يقولون إن المطلوب الحقيقة لا الشريعة.

ولكن نتكلم عن أئمة الصوفية الذين تصدوا للوعظ العام والذين لم يترهبنوا، فهؤلاء هم الذين دعوا إلى الإسلام، وانتشر الإسلام فى كثير من نواحى البلاد الإسلامية ببعضهم.

الدعاية الصوفية

٤٤- الدعاية الصوفية كانت تقوم على أمرين :

أحدهما- من القدوة والاختلاط، والأخلاق الاسلامية والتسامح والرفق فى المعاملة، والمثل الطيبة الواضحة فى المعاملة الحسنة.

وذلك ان أئمة الصوفية كالقطب عبد القادر الجيلانى، وأبى الحسن الشاذلى والمرسى أبى العباس، وابن عطاء الله السكندرى، كانوا على أخلاق إسلامية طيبة، وكانوا على سماحة تدنى البعيد، وتثبت القريب.

وبهذه الأخلاق التى سرت إلى بعض مريديهم وأتباعهم كانوا يجذبون إلى الإسلام طوائف من غير المسلمين الذين يختلطون بهم، فإن المعاملة الحسنة، والاختلاط الذى يكون بعشرة طيبة يجذب النفوس، وتسرى بها العقائد الفاضلة، فتسرى العقيدة العالية إلى مادونها كما يسرى الماء العذب من المكان المرتفع إلى المكان المنحدر.

وقد كان هؤلاء الآحاد من المتصوفة الذين لا يشعبذون بل يتعبدون ويختلطون بأهل أفريقيا الوثنيين، والمجوس والوثنيين فى آسيا، فيؤثرون بمعاملتهم، وبسعة صدورهم، وعقولهم بأكثر مما يؤثر القول، وقد كانت تقترن بهذه الأخلاق دعوات آحادية أحياناً.

الثانى من الأمور التى كانت تقوم بها الدعاية الصوفية مجالس الوعظ التى كان يعقدها الأئمة من الأقطاب، فقد كانت مجالس عامة يحضرها المسلمون، ويحضر فيها غير المسلمين فيتبعون الشيخ فى مواعظه ثم يعلو الأتباع حتى يتبعوه فى عقيدة الوحدانية، وكان

من هؤلاء من له ثقافة إسلامية واسعة، وعلم بالإسلام أصوله وفروعه كعبد القادر الجيلانى الذى عاش فى القرن الخامس والسادس الهجرى من ٤٧٠ - إلى ٥٦١- فقد كان عالماً بالأصول والفروع، والحديث رواية ودراية قد جلس للوعظ أربعين سنة، فقد ابتدأ واعظاً، من سنة ٥٢١ ومفتياً من سنة ٥٣٦ إلى أن قبضه الله تعالى، وكأن منصب الإفتاء كان فى نظره أعلى من منصب الوعظ، لأنه ما تصدى للإفتاء إلا بعد الستين.

وكانت تعقد مجالس وعظه، وتكون موعظته عامة لايمنع منها أحد ولايمنع فيها من الحضور أحد، فكان يدخل اليهودى والنصرانى، والمجوسى والوثنى، وقيل إن مجلسه كان يحضره نحو أربعة آلاف، وما كان المجلس ينفض إلا على إسلام كثيرين، ومنهم من كان يحضر إليه طالبا الهداية، فيسلم على يديه.

لقد جاء فى كتاب (قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر) «أنه أتاه فى مرة ثلاثة عشر رجلا من النصارى، وأسلموا على يديه فى مجلس وعظه، وقالوا نحن من نصارى العرب وأردنا الإسلام، وترددنا فيمن نقصده لنسلم على يديه، فهتف بنا هاتف نسمع كلامه، ولانرى شخصه : أيها الركب ذو الفلاح ائتوا بغداد وأسلموا على يد الشيخ عبد القادر، فإنه يوضع فى قلوبكم ببركته مالم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس.

ومع ما كان يفد إليه من الناس بحكم ما نال من سمعة بركته وإخلاصه، كانت مجالسه التى كان يحضرها أحياناً عدة تبلغ أربعة آلاف يحضرها بعض المجوس والمسيحيين وغيرهم من غير المسلمين، وهو يتجه فى دروسه إلى ثلاثة اتجاهات : أولها وأغزرها يتعلق بالقلب وتطهيره من الأرجاس وتربية المحبة فيه، وبعضها يتجه إلى بيان العقيدة الإسلامية بياناً واضحاً بينا لا اعوجاج ولاتعقد، يعتمد على القرآن والحديث فى بيان العقائد، ولا يتعرض لعلم الكلام إلا عند الاضطرار إلى الأدلة المنطقية، وفى كثير يتجه منها إلى بيان الأحكام الفقهية مبيناً أسرار هذه الأحكام، والحكمة فى شرعيتها متجهاً فى بيانها إلى تربية الأخلاق الربانية، لأنه كان ربانيا.

فبهذا البيان الحكيم، وبما حف به من بركات، كان ربانياً فى أخلاقه وبيانه وسلوكه، فكان النصارى والمجوس الذين يحضرون درسه ينجذبون إلى الحقائق الإسلامية انجذابا، وبفضل إخلاصه، واستقامة نفسه وعقائده وحسن أدائه، ومايحف به من بركاته، يسلم الناس من غير دعوة إلى الإسلام، بل إنه بهذا الأسلوب النورانى يفتح القلوب.

فكان القطب عبد القادر الجيلانى مربياً لنفوس مريديه، وداعيا إلى الحق وإلى الهداية، ومن هذه الناحية دخل فى الإسلام على يديه الكثيرون لطهارته وإخلاصه، وحسن دعوته إلى النور من غير تكلف.

الصوفية والإسلام فى إفريقيا

التيجانية:

٤٥- ذكرنا ما كان من أثر فى تصوف الصوفية من أقطابها من أمثال القطب أحمد الرفاعى، والقطب عبد القادر الجيلانى، واخترنا عبد القادر مثلا طيبا للدعوة الإسلامية، وما كان لنا أن نتبع الأقطاب قطبا قطبا، ولكنا اخترنا مثلا صالحا، لمن لم نذكرهم، على أنه واحد منهم، والآن نقفز قفزة مكانية وتاريخية لنجتاز إلى إفريقية فإنه دخلها نور الإسلام بالدعاة الأولين فى شمال أفريقية فى ليبيا وتونس والجزائر، والمغرب الأقصى، ثم اجتاز البحر إلى الأندلس، وذلك بالدعاة الذين حملوا القرآن داعين إلى الإسلام ومزيلين كل الحجزات التى تحول دون الدعوة، حتى أزهر، وكان فى الأندلس حاملا للحضارة التى لم يعرفها أهلها من قبل.

ولكن الإسلام لم يتغلغل فى وسط أفريقيا السوداء فى أول الأمر لأنها كانت مجاهل، وكانت الجهالة تسيطر عليها، ولم يتجه القائمون إليها ابتداء، بل اتجهوا إلى النوبة ثم السودان الذى يسير فيه النيل، وقد عمر أهل الشمال فيه بالعرب الذين آووا إليه من مظالم من اغتصبوا الأمور من الخلافة العباسية، ولذا تجد فى شمال السودان كثيرا من العباسيين الذين هربوا من الاضطهاد عند الغزو التترى.

وإن الحضارمة كان لهم الأثر الواضح فى دخول الإسلام فى شرق السودان، وترى آثارهم واضحة فى ذلك، وكثيرون منهم يقيمون مع إخوانهم الأفريقيين.

أما فى غرب أفريقيا ووسطها فكانت الدعوة إلى الإسلام تجئ من شمال أفريقية قوية واضحة نيرة.

وكان للصوفية فضل كبير فى هذا فإن أتباع أبى الحسن الشاذلى، والمرسى أبى العباس، ونشاط ابن عطاء الله السكندرى كان لهم دخل بالقدوة والمسلك فى أفريقيا، والفضل الواضح الأثر كان للتيجانية والسنوسية فى القرون الأخيرة، فقد كانت التيجانية لها عناية شديدة بالدعوة إلى الإسلام، فى غرب أفريقيا ووسطها، وكان السيد أحمد التيجانى ١١٥٠ - ١٢٣٠م، ومن جاء بعده لايقتصرون فى تعاليمهم على بث التصوف والزهادة والروحية، بل يجتازون إلى أفريقيا السوداء يبثون فيها الإسلام، ويربونهم، كانوا يعلمون الزنوج الإسلام، وينشئون لهم معاهد تدرس الإسلام، ثم يرجعونهم إلى أقوامهم دعاة، ومدرسين فى المعاهد التى أنشئوها، وقد استمروا على ذلك حتى انتشر الإسلام فى غرب أفريقيا ووسطها، حتى إنك ترى الكثرة الكاثرة فى ساحل الذهب وساحل العاج، وغانا وغينيا، والسنغال والكنغو ونيجيريا من المسلمين الأقوياء فى تدينهم، وإن كان فيهم جهل يحتاجون معه إلى من يعرفهم بالأحكام الإسلامية بإجمالها وتفصيلها وفروعها وكلياتها.

ولما استعمرت أوربا أفريقية، وأرسلت لها المبشرين فرادى وجماعات، لم تستطع تنصيرهم ولم يستطيعوا أن يهضموا بعقلهم الفطرى المستقيم المعانى التى يدعو إليها نصارى هذا الزمان، فنصرانية اليوم غير مسيحية المسيح عليه السلام.

ولكنهم -أى الأوربيين- جعلوا حكامهم من غير المسلمين، ولايزالون بعد أن خلعوا نير الاستعمار من فوق رقابهم، أولئك الحكام يعملون بجدع أنوفهم ليبقوا على جهالتهم، ولكن النور دخل إلى قلوبهم، فاتجهوا إلى العمل على تولى السلطان، واتجه المتحكمون إلى إبعادهم عن العلم ولكنهم لايقوون على الوقوف ضد التيار، ولذا أخذوا يتملقون ويدهنون ليبقوا فى حكمهم.

والحبشة كثرتها الساحقة مسلمة بالدعوة الحضرمية، ولكن حكامهم يحولون بينهم وبين العلم، ولايمكنون منه إلا من هو نصرانى ليميت الجهل المسلمين والإسلام دين العلم.

ومهما يكن فإن المتصوفة من التيجانية لهم دور كبير فى إسلام غرب أفريقيا مع السنوسية والجيلانية.

السنوسية:

٤٥- لن نتكلم فى الدولة التى نشأت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بليبيا والتى رأسها ملك من أحفاد السيد السنوسى، الذى كان قائماً بالدعوة إلى الإسلام نقياً من الشوائب، وألف فى ذلك الكتب يدعو فيها إلى تنقية الإسلام مما خالطه من أوشاب الزمان،

وتوالى الأزمنة، إنما نقصد تلك النزعة الفكرية القوية التى نشأت فى الزوايا التى أنشأها محمد بن على السنوسى، وابتدأ بها فى أبى قبيس بمكة، ثم مدينة الرسول ﷺ، ثم أنشأها فى ليبيا والجزائر، والصحراء، حتى وصل إلى بحيرة تشاد فى وسط أفريقيا، والتى كانت تقوم بالدعوة إلى الإسلام، تدعو إليه نقيابين المسلمين، وتربية روح القوة، والأخذ بما هو من أسباب القوة فى العصر الحاضر، وتدعو الوثنيين وبقايا العناصر القديمة إلى الإسلام فى وسط أفريقيا وسواحلها، ودخل استجابة لهذه الدعوة القوية المستمرة عدد لايحصى إلا بألوف الألوف فى نيجيريا وغانة وغينيا والسنغال والكونغو وتشاد، وأوغندا، وروديسيا، وغيرها من وسط أفريقيا، وقد ضايق ذلك المبشرين، وحاولوا أن يتباروا معهم فباءوا بالخسران لسلاسة ما تدعو إليه السنوسية وتعقيد ما يدعو إليه دعاة المسيحية.

وإن الزوايا التى أشرنا إليها، وأنشئت فى الجزائر وتونس وبرقة، وتغلغلت فى الصحراء الغربية حتى وصلت إلى الأراضى الخضراء حول وادى النيل، وغيره من أنهار أفريقيا، وكانت أولى ثمرات هذه الزوايا خصوصاً بين الوثنيين ذيوع الدين الإسلامى فى قلب تلك القارة المظلمة، ونجحت تلك الدعوة السنوسية فى هذه الجهات لدرجة أن صارت جمعيات المبشرين الأوربية المنبثة فى القارة الأفريقية كلها تجد فى الدعوة إلى الإسلام من السنوسيين خصما عنيداً، ولاقبل لها بالتغلب عليه مع ما أوتيت من مال وقوة دولية، انظر كتاب (السنوسية دين ودولة للدكتور محمود فؤاد شكرى).

كان كبير السنوسيين يرسل الرسل إلى الزوايا، وينقلون القوافل والسائرين فى الصحراء، يدعونهم إلى الله آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر هادين الوثنيين، حتى تكونت من عمل هؤلاء، وعمل من سبقوهم من التيجانية، الذين ينتمون إلى الطريقة الشاذلية مثلهم أن وجدت دول إسلامية الكثرة الكاثرة فيها مسلمون.

ولقد تململ المتعصبون من الأوروبيين من هؤلاء السنوسيين فحاربوا دعوتهم، ودسوا بينهم وبين الدولة العثمانية التى كانت تلك البلاد تابعة لها أو خاضعة لنفوذها.

ولكنهم كانوا ماضين فى بث الإسلام فى نفوس الأفريقيين، وإن ضج منهم المبشرون وضاقوا ذرعا بهم إذ وجدت الإرساليات النصرانية التبشيرية فى السنوسيين خصوما أقوياء أشداء فى عملهم لايملون، ولايقوون على وقف حركاتهم، وقد عطلوا أعمالهم، وأفسدوا عليهم دعاياتهم، وإن التبشير كما هو معلوم لمؤرخى العصور الحديثة نذير الاستعمار يتقدمه، ويقويه.

ولذلك أحست الدول التى باشرت استعمار أفريقية كفرنسا وإيطاليا، بخطر الدعوة الإسلامية ونشرها، على مطامعهم المتعصبة ضد الإسلام، وإن ظهرت بغير ماتخفى، ولذلك حاربت السنوسية أو حاربت فيها الدعوة إلى الإسلام، بكل الطرق المحللة فى قانون الأخلاق والمحرمة على سواء.

وقد اتجهت الدعوة السنوسية إلى جنوب السودان، وكان آخر السنوسيين فى قوة دعوته وإخلاصه السيد أحمد الشريف السنوسى ابن عم من صار ملكا من بعد، كان قد رأى جنوب السودان هو الذى لم تعم دعوته، فأرسل الرسل إليه من السنوسيين، يدعون إلى الإسلام حتى ضاق بهم ذرعا المندوب الإنجليزى إذ ذاك وهو اللورد كتشنر، فأرسل إلى السيد السنوسى يتضرع إليه أن يخفف دعوته.

ولولا حرب الطليان مع السنوسية فى سنة ١٩١١ وسنة ١٩١٢ لحول الجنوب السودانى إلى مسلمين، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

الدعوة الإسلامية الآن

٤٧- ذكرنا أن الدعوة الإسلامية واجبة، وأنها تبليغ رسالة النبى ﷺ وأنها فرض على الكافة، فرض كفاية على الجماعة الإسلامية كلها، بحيث يجب على الأمة الإسلامية مجتمعة أن تهيئ جماعة من بينها تكون عندها القدرة على الدعوة الإسلامية ولها مؤهلات علمية، بحيث تكون على علم كامل بالإسلام فى كلياته، ولها علم بالبيان وقدرة عليه، ولها علم بالنفوس الجماعية والآحادية، ولها قدرة جسمية وعقلية، ودربة على الاتصال بالجماعات، والمشاركة الوجدانية بهم، والتغلغل فى نفوسهم. وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين(١)»

وقلنا إن كل واحد من المسلمين عليه واجب خاص، وهو أن يدعو من يعرف، من عشراء وجيران، ودعوته إليهم ببيان الإسلام على قدر ما يعرف، وكذلك كان يفعل الصالحون من المؤمنين فى صدر الإسلام، وماجاء بعده من عصور.

وإن من أقوى الدعوة العامة حال المسلم فى خلقه ودينه، وعقله واستقامة نفسه، فقد ذكرنا أن القدوة كانت أقوى داع إلى الإسلام، ولانقول مثبطين إن حال المسلمين منفرة عنه،

(١) النحل: ١٢٥.

مبعدة الدخول فيه، لانقول ذلك، ولكن يجب أن تكون الأخلاق الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة وأعمال السلف الصالح، واضحة فينا، وإذا كنا قد تخلفنا عنها فى الماضى، فإنه يجب علينا أن نزيل غباره فى نفوسنا وأخلاقنا، وأعمالنا، وأن نظهر هادين مرشدين، كما كان أسلافنا رضى الله تبارك وتعالى عنهم.

ولايسوغ لنا أن نظن أن الفقر منفر من الإسلام، وأن الغنى والظهور به مقرب من الإسلام، إنما الأمر أمر النفوس وحسن العشرة، وقد رأينا فى عصرنا، وفى الأيام القريبة أن أصحاب المهن الصغيرة فى الأعين كالحمالين والنساجين، والعمال غير الفنيين تبدو منهم أخلاق فى حسن العشرة والائتلاف مع إخوانهم، والوفاء والفداء ماليس فى غيرهم، وكان منهم، وهم الذين لايعلمون إلا قليلا، يؤدون أركان دينهم من صوم وصلاة، وصدقات من قوتهم – من يجذبون الناس إلى الإسلام، وهم بهذه الحال المتواضعة، وما نقص تواضع من عزة.

وكنت أرى منهم من يذهب إلى المحكمة الشرعية، ومعه صاحب مسيحى، وشاهدان يشهدان بتوثيق الإسلام، فسألت رئيس المحكمة عن ذلك. فقال لى : لا يخلو يوم من مثل هذا، وكان ذلك أيام كانت المحاكم الشرعية توثق الإسلام.

فالاعتبار هو فى النفوس لا فى المظاهر من لباس ورئى.

تنظيم الدعوة

٤٨ – نتكلم فى هذا الموضوع على شعب ثلاث:

(أ) كيف تتكون الجماعة الداعية إلى الإسلام تنفيذاً لفرض الكفاية، وكيف يكون تنفيذ الدعوة الآحادية، أو الفردية.

(ب) أساليب الدعوة

(جـ) مادتها.

الجماعة التى تتولى الدعوة، يجب أن يكون تكوينها عمل الجماعات والأقاليم الإسلامية، وقد أهملنا فى الماضى تكوين تلك الجماعة التى تقوم بهذا الفرض الكفائى، الذى يكون واجباً على الخصوص وعلى العموم كما يقول الإمام الشافعى رضى الله تبارك وتعالى عنه فى رسالته فى علم الأصول.

ووجوبه على الخصوص أى يكون فرضاً عينيا، بالنسبة للجماعة التى تكونت، وحملت عبء الدعوة ووجوبها على العموم من حيث إن جميع المؤمنين عليهم أن يكونوا هذه الجماعة، وكذلك الشأن فى كل الفروض الكفائية، لها جانب خصوص تلزم به الجماعة التى تألفت لذلك الفرض الكفائى، وواجب على العموم من حيث ذلك التأليف كالطب هو فرض عين على الأطباء، وفرض كفاية على العموم من حيث إنه يجب على الجميع أن يعملوا على تربية الأطباء فى فرع من فروعه.

فعلى كل إقليم أن يربى جماعة للدعوة إلى الإسلام، ولعلنا لانكون داعين إلى عجب إذا دعونا فى كل جامعة إسلامية أن يكون فى الدراسات العليا بها دراسة خاصة بالدعوة الإسلامية، تخصص لهذه الدعوة، تدرس علوم القرآن والسنة دراسة خاصة بالدعوة الإسلامية، فتبين فى القرآن أخبار الأنبياء السابقين، وطرق دعايتهم، بدعوة الله تعالى إلى دينهم، وتدرس السنة دراسة يتبين منها طرق دعوة النبى ﷺ إلى الله وطرق تبليغ رسالته، وتدرس الأحاديث الخاصة بهذه الدعاية.

وتدرس بها لغات البلاد التى يراد الدعوة فيها، وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والعادات الاجتماعية فى هذه البلاد.

ويدرس بهذا النوع من الدراسة علم النفس من كل جوانبه، وتدرس الخطابة، وطرق الدعوة وأساليبها، وعلم أدب البحث والمناظرة، وغير ذلك مما يحتاج إليه البيان، ويدرس علم مقارنة الأديان.

ويقبل فى هذه الدراسات العليا المتخصصة للدعوة غير طلبة الجامعة الإسلامية المتخصصين للدراسات الإسلامية من تفسير وفقه وحديث، ولغة عربية- طلبة الكليات النظرية والعلمية إذا أرادوا أن يتخصصوا للدعوة الإسلامية.

وإن ذلك له مكانه فى الدعوة الإسلامية، لأنهم يستطيعون أن يكونوا دعاة للإسلام، ويدعون فى طبهم إلى الإسلام بالتبرع بخبرتهم الطبية، وكذلك المهندسون، والتجاريون، والزراعيون، وإنه فى البلاد النصرانية يوجد أطباء ومهندسون وغيرهم من المتخصصين من العلماء من يريدون أن يدعوا إلى ملتهم ويبشروا بها، فيذهبوا إلى كليات اللاهوت، ويدرسوا فيها ولسنا بدعا فى هذا.

ويدرس فى هذا القسم من الدراسات العليا أحوال البلاد التى يذهبون إليها فى الدعوة الإسلامية، وهكذا يحمل المتخصص كل مؤهلات الدعوة إلى الإسلام، وتلك إشارة

معرفة، وعند الاتجاه إلى هذا تفصّل المناهج تفصيلا كاملا لتكون مؤهلة لهذا العمل الذى هو عمل النبيين، وهو تبليغ رسالة سيد المرسلين، وخير الدعاة إلى الحق، وإلى صراط مستقيم.

وإن من واجب مجمع البحوث الإسلامية ومؤتمره الذى ينعقد كل عام أن يكون منه موجهون لهذه الدراسات، يتبعونها، ويشرفون عليها، ويوجهونه إن كان ذلك فى دائرة الإمكان، ولم تحل الحاجزات الإقليمية دون ذلك.

وإنه بجوار ذلك تكون ثمة مكاتب إسلامية تابعة لمجمع البحوث تتولى الخريجين من هذه الدراسات، وتوجههم إلى الأقاليم والبلاد التى يمكن أن تقوم فيها الدعاية الإسلامية إذ تكون الأرض صالحة، والنفوس مستعدة لمعرفة الحق فى الأديان، وإننا نرى أنه عقب الحرب العالمية الثانية كانت النفوس متقبلة للدعوة الإسلامية فى بلاد الجرمان ولكن لم يكن ثمة دعاة إلا من بعض القاديانيين.

الإشراف على الدعوة:

٤٩- ومع هذه الجماعة التى تتخصص لإقامة الدعوة، وتكون الدعوة فرض عين بالنسبة لها، كما يكون الطب فرض عين على الطبيب، ويكون على المجموع إقامتها.

مع هذه الجماعة توجد دعوات آحادية لايمكن الرقابة على توجيههم ولكن يمكن إرشادهم إلى أمثل الطرق، ولذا يجب على الوعاظ الذين يعظون فى المساجد، وأئمتها أن يبينوا للناس واجبهم فى هذا وأمثل الطرق، ويبينوا أن ذلك قيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن ذلك يكون حسبة فى سبيل الله، وأن العشرة الحسنة والرفق، وأخذ المخالفين بالمعاملة الحسنة، وألا يجافوهم، ويستدنوهم بالمودة الرابطة، وأن يعرفوا أنه لايدنى القلوب كالمعاملة الطيبة والرفق فى القول، وألا يسبوا الله بغير علم، فقد قال تعالى: «ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم»[1].

وذلك فوق أن سب دينهم، ينفرهم، ولايقربهم، ويوجد العناد فى قلوبهم، وحيث كان العناد كان الجمود، وحيث كانت المودة، كان القرب، وتفتح القلوب ليدخلها نور الإسلام.

وإنه توجد جماعات فى البلاد الإسلامية تخصص نفسها للدعوة الإسلامية وجدناها فى لاهور سنة ١٩٥٨، وهذه الجماعات تخصص جزءا من أعمالها للدعوة إلى الإسلام، فيخصصون عشر أوقاتهم وأموالهم، وجهودهم للدعوة إلى الإسلام.

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٨.

ويخرج الواحد منهم مجاهداً فى سبيل الدعوة، لايحمل أى شئ يقوى إلا قوة نفسه، ورغبته فى تبليغ رسالة النبى ﷺ، يذهبون إلى حيث يكون للدعوة مجيب، وقد أسلم على أيديهم أكثر من أسلم من زنوج أمريكا وجزر الهند الشرقية وغيرها كأطراف أندونسيا.

وهؤلاء فيهم من يعلمون حق العلم ويدركون رسالة النبى ﷺ حق الإدراك، وبينهم من يعلمون علماً ابتدائياً، وقد يبلغون من يدعونهم أحياناً تعاليم غير سليمة فى تفصيلات الإسلام، ولذا يجب على القائمين على الدعوة الإسلامية المتخصصين أن يكونوا على علم بما يقوم به هؤلاء، ويعلموهم، ويتعرفوا حال من استجابوا لهم، ويصححوا لهم ماعرفوا.

وإن كثيرين من هؤلاء يعلمون الإسلام على انحراف فيما يعلمون كالقاديانية، ولهم فى ذلك نشاط بيِّن واضح، وحسبهم أن يدخلوا من أدخلوهم فى الإسلام، وعلينا تصحيح إيمان أولئك الذين دخلوا فى الإسلام ليكونوا مؤمنين.

الاتصال بالصوفية:

٥٠ - ذكرنا أن الصوفية فى الماضى كان لهم دور فى الدعوة الإسلامية، وقصصنا لك بعض القصص عن مجالس القطب عبد القادر الجيلانى، ومقام الشاذلية، ومن ساروا على نهجهم فى ذلك.

وانتهينا إلى السنوسية، ومقاومتهم للتبشير النصرانى، وتبرم أولئك هم ومن وراءهم من الفرنسيين والإنجليز والطليان، وغيرهم.

والآن نريد أن نتخذ من الصوفية فى هذا الزمان مادة للدعوة إلى الإسلام، وقد رأينا بعض الدعاة إلى الإسلام من السودانيين يدعون إخوانهم من الجنوب إليه، إذ لا سبيل إلى الوحدة فى السودان إلا بإسلام الجنوب، وجدنا أن من الصوفية من اتخذوا منهاجاً لهم الدعوة إلى الإسلام، حتى بالذكر والتمايل ذات اليمين وذات الشمال، فقد كانوا بذلك يجذبون العراة من الوثنيين السودانيين إليهم، فإذا جاءوا كسوهم بعد عرى، وأطعموهم، ودعوهم إلى الإسلام، أو بعبارة أدق علموهم الإسلام، وكانوا يستجيبون لهم أكثر من استجابتهم لمبشر النصارى، وكانوا يقولون للشيخ الصوفى : ياشيخ ، إنك خير من هذا الإنجليزى، وكلامك أطيب، وأحسن.

وكانوا يسيرون بهم سير التدرج، فيعلمونهم الصلاة، فإذا جاء الصوم علموهم الصوم، وهكذا يدخلون الإسلام فى نفوسهم جرعة، جرعة، كما دخل الإسلام فى قلوب العرب متدرجاً، وإذا كان للصوفية تلك القدرة إن سلكوا مسلك أسلافهم، ولم ينقطعوا عن

الناس فى الخوانق أو يحصروا أنفسهم على المواكب بالبيارق، والذكر والتلوى لغير غرض مقصود من وراء أفعالهم.

وإن تنظيم أمورهم ليكونوا للإسلام من الأمور الممكنة، وإن لهم تأثيراً فى العامة، وفى أوساط الناس، وإذا تسربلوا بسربال الزهادة مع الدعوة إلى الإسلام أفادوا كثيراً وعلت مكانتهم، إنهم ينبثون فى كل مكان وفى كل بلد، فلو اتجهنا فى سبيل الدعوة إليهم لكان فى ذلك خير.

إن مشايخ الطرق الصوفية فى كل الأقاليم الإسلامية لو اتجهوا إلى ما اتجه إليه أسلافهم فى الماضى ونظموا الدعوة إلى الإسلام فى مجتمعاتهم، لكانوا قوة فى الدعوة إلى الإسلام منتجة مثمرة، إن الزهادة فى الدنيا، أو الانصراف إلى الذكر، ولو كان بالقلوب ليس هو المقصد الأسمى من الإسلام، إنما هو ذكر الله الدائم فى القلوب، والعمل الصالح، وقد كان بدل الأبدال على بن أبى طالب فارس المسلمين، يعود من المعارك وسيفه ينطف دماً، وهو الزاهد الباكى إذا قرأ القرآن، وإذا عرضت له الدنيا قال لها : غرى غيرى.

إن الصوفى الكبير لايكون قطباً ربانياً إلا إذا عمل عملا ربانياً، كما فعل القطب عبد القادر الجيلانى، وكما فعل الأقطاب التيجانى والسنوسى، إنه عند تربية المريدين تهذب قلوبهم، وتعمر بذكر الله، وتمتلئ إيماناً به، فإذا اعترفوا مع ذلك بأنه من قوة الإيمان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة إلى دين الله تعالى، ويعلموا قول النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب :«لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت»

إن المتصوف إذا رغب فى التقرب إلى ربه بالصلاة والأوراد، والدعاء ليلا ونهارا يعمل لنفسه فقط وتقواه عائدة عليها وحدها، ولكن إن دعا الناس إلى الخير الذى وفقه الله تعالى إليه كان عاملا لغيره مع نفسه، وأعظم الخير أن تهدى رجلا إلى الإسلام.

وإنه إذا علم المريد ذلك التعليم، كان من المجاهدين المتصوفين، ولقد قال النبى ﷺ «رهبانية أمتى الجهاد» وأول الجهاد الدعوة إلى الإسلام، بل إن الجهاد ما فرض إلا لإزالة المحاجزات التى تحول دون الدعوة إلى الإسلام.

إن البلاد الإسلامية من أقصى الأرض إلى أقصاها تؤثر فيها الدعوات الصوفية وأعمال الصوفيين، فإذا قاموا بحق الدعوة استجاب الناس لهم، إن كانوا مخلصين. وخلاصة القول أننا نريد أن تتوجه الصوفية إلى الدعوة إلى الإسلام فى ربوع الشعوب الإسلامية كلها، لا فى مصر وحدها.

إنها إن اتجهت إلى ذلك كانت أعلى قربة إلى الله وأنفع للناس، ولاتكون مجرد أعمال قد تتجه بها إلى الشعبذة، نريد تنقيتها، وجعلها نافعة للدين وللناس.

أساليب الدعوة

٥١ - أساليب الدعوة تتكيف بحال العصر من أساليب الدعاية، وقد صارت الآن طرق الإعلام متعددة النواحى، فمنها الكتب المنشورة، والصحف السيارة، والأقوال المذاعة المرئية وغير المرئية، ومنها اللقاء بالجماهير والآحاد :

(أ) ولاشك أن الكتب التى تكتب عن الإسلام ومبادئه وما اشتمل عليه من عقائد سليمة تتفق مع ما يحكم به العقل السليم، والأحكام التكليفية سواء أكانت تتعلق بتهذيب الآحاد أم تتعلق بتنظيم العلاقات فى داخل المجتمع الإسلامى، وعلاقات بنى الإنسان بعضهم مع بعض، وأساسها الوحدة الإنسانية، والأخوة العامة، والتعاون الإنسانى، ومع هذا التعارف التعاون الإنسانى العام الذى يدعو إليه الإسلام، وما دعا إليه الإسلام من عدالة اجتماعية.

وهكذا تكتب الحقائق الإسلامية بكل اللغات الحية، وغير الحية مادامت موضع الدعاية الإسلامية.

إن العالم لايعرف الحقائق الإسلامية إلا عن طريق أعداء لها ينقلونها شائهة كما يحبون، وعلى ما تهوى أنفسهم المعادية التى لاتنظر إلى الإسلام نظرة غير متحيزة أو غير جانبية لايرى بها القرطاس إلا من جانب الهوى المضلل، والكذب المفترى.

والعامة لايعرفون شيئاً عن الإسلام، فمن الخير فى الدعوة الإسلامية أن نكتب رسائل صغيرة فى كل موضوع من موضوعات الإسلام يسهل تناولها، ويسهل هضمها، وتكون الموضوعات التى تشكل الرأى العام، كنظرية العلاقات الإنسانية فى الإسلام، وكنظرية الحرب، والتكافل الاجتماعى، وذلك كله مع بيان العقائد الإسلامية والعبادات الإسلامية السهلة الإدراك التى لا نرى فيها اضطراباً فى فكر، ولا التواء فى اعتقاد.

ويجب أن تتوافر الجماعات التى تتخصص فى هذا؛ لكتابة ما يكون فى الإسلام علاج له فى وسط ذلك المضطرب الإنسانى، وخصوصا فى المسائل التى تثير النزاع فى هذا الوجود الإنسانى.

(ب) ومن بعد هذه الكتب المبينة لحقائق الإسلام، إذاعة هذه الحقائق بالمذياع المرئى

وغير المرئى فى البلاد الإسلامية، وغيرها إن أمكن فتخصص ساعات من الإذاعات الإسلامية بنوعيها لبيان الحقائق الإسلامية الإنسانية والجماعية والآحادية ليكون الناس على علم بالإسلام، أو ليعرفه من يتعرفه، وبالنسبة للعقيدة تذكر آيات القرآن الداعية إليها بأسلوب لايعلو على العامة، ولاتنبو عنه أذواق الخاصة.

وتذكر حياة الرسول ﷺ، وما اقترن بها من معجزات وخوارق للعادة، مع بيان أخلاقه الذاتية، وفضائله المحمدية من وقت مولده إلى أن لقى ربه.

(جـ) والمجلة الإسلامية بدل أن تكتب المقالات المسهبة فى اختلاف العلماء أو تهويل الأحكام الإسلامية، أو تتبع ماهو مستور مما لايعلن ينبغى أن تخصص كل مجلة بابا من أبوابها لبيان الحقائق الإسلامية، فتبين العقيدة، وتبين الأحكام التكليفية، ويكون باب الدعوة مكتوبا باللغة العربية ابتداء، ومترجماً إلى لغة من اللغات الحية أو لغة من اللغات المنتشرة فى العالم، ويعمل على توصيلها إلى كل أجزاء الأرض.

(د) وتنشأ جماعات متخصصة للدعوة فى كل بلد غير إسلامى ما أمكن ذلك، فإن تعسر أو تعذر تكون فى بلد قريب منه يمكن أن تصل الحقائق منه إليه، فتنبث الجماعات الإرشادية التى كونها الفرض الكفائى لهذا الغرض فى طول الأقاليم وعرضها داعية مبينة باللقاء بالذين تدعوهم، وتهديهم إلى الله تعالى، وأن يحسوا بالخير الذى يكون فيه من يتبعون الإسلام حقا وصدقا.

وإن هؤلاء الذين يدعون إلى الإسلام عن قرب، ويلتقون بالمدعوين لايقتصرون على القول، بل يجب أن يكون تأليف القلوب بجوار الدعوة القولية التى تبين الحقائق الإسلامية، فيجب أن يكون بجوار ذلك، وسائل عملية تؤلف ولاتنفر، وتقرب النفوس من غير أن يكون فيها ما ينفر، وذلك بالمعاونات الإنسانية المختلفة، فإنها تدنى القلوب النائية.

فإذا كان الداعى طبيبا عالج المرضى، وطب لذوى الأسقام، وفى سبيل ذلك تقام المصحات الإسلامية فى وسط الأقوام الضعاف لطب أجسامهم، ومن وراء ذلك تأليف قلوبهم. والمبشرون المسيحيون يفعلون ذلك فى البلاد الإسلامية، وإذا كانوا لاينجحون، فلأنهم بين أقوام دينهم أهدى سبيلا، وأقوم دليلا.

وتكون الرعاية الاجتماعية والاقتصادية قائمة على دعائم إنسانية لايبدو فيها أنها شراء للنفوس، ولايكون ذلك مقصداً بأى وجه من الوجوه بل يطعمون الطعام على حبه أولئك المساكين، وإذا كان التأليف غاية من حيث الدعوة، فإنه يجب أن يكون الباعث إنسانياً دينياً

تأليفيا محبباً فى الإسلام وليس اتجاراً، وبيان أن ذلك مقصد جوهرى من مقاصد الإسلام، ويبين لهم فى هذا المقام أن الإسلام يرحم الإنسان ويكرمه لأنه إنسان ولو كان وثنياً أو مجوسياً، ويذكر لهم سيرة السلف الصالح فى ذلك .

وإن الإسلام لاينظر فى التعاطف الإسلامى إلى الاختلاف فى العنصر أو الجنس أو الدين، وإنما الجميع سواء أمام الله تعالى، كما قال تعالى : «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»(١).

فهذا التبرع بمصحة أو علاج، أو معونة أو هداية إلى أسباب الإنتاج من زراعة وهندسة، واستخراج المياه هو من باب التعاون الذى حث الله تعالى عليه، ودعا إليه، فقد قال تعالى«وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان»(٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه» يبث فيهم هذه المعانى عن الإسلام، وهو يمدهم بهذا العون، لكيلا يعلموا أنه ثمن الاتباع.

(هـ) ويجرى معهم بسنة التدرج، لايعطيهم الإسلام جرعة واحدة، كما أشرنا من قبل، بل يتدرج بهم من السهل المقبول الذى لاينفرون منه بمقتضى عاداتهم، وإن كانت آثمة.

يبتدئ معهم، ببيان العقيدة، ويقويها بالصلاة، ويعلمهم الصلاة عملا، ويقول لهم صلوا كما رأيتمونى أصلى، ويسير بهم سيراً إلى الإمام فى بيان الشريعة بالتفصيل يبتدئ بالعبادات، ثم بالمحرمات الأسهل قبولا فالأسهل قبولا حتى يبين لهم الشريعة كاملة فيكونون مثلنا، إن لم يكونوا خيراً منا .

الداعى

٥٢ – لاشك أن شخصية الداعى لها الأثر الأكبر فى الاستجابة، فهو الذى ينفذ إلى نفوسهم فيقربها أو يجئ بمخاشنتهم فينفرها، أويكون فيه جفوة طبع، وغلظة نفس فلا يميل أحد إليه بالفطرة، ولقد قال الله تعالى : «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك»(٣)، وإنه يجب أن يتحلى بالصفات الآتية :

أولا – يجب أن يكون ذا نية حسنة يحتسبها لايدعو رجاء أجر، أو مال أو جاه، إنما يدعو رجاء ما عند الله لأنه يقوم مقام النبيين فى الدعوة إلى ربهم، والاتجاه إلى الناس بقلب سليم، لايطلب إلا ما عند الله تعالى، وإن مافى القلب يصل إلى القلب.

(١) الحجرات : ١٣ (٢) المائدة : ٢ (٣) آل عمران : ١٥٩

يروى أن رجلا قال للحسن البصرى كلاما حسناً، فقال له الحسن: إما أن يكون بنا عيب أو بك، إنا لم يؤثر فينا قولك؛ إن ما كان من القلب يصل إلى القلب، إنه يتقدم الداعى إلى الدعوة مؤمنا بوجوبها، ومتسامياً بها، لأنها عمل النبى ﷺ، ولايقوم بها على أنه مأجور يرجو رضا رئيس، أو ترقية إلى منصب.

وثانياً - يجب أن يكون على دربة فى البيان، ومعرفة وجوه القول، ولايشترط أن يكون خطيباً مدرها، بل يكتفى بأن يعرف كيف يخاطب الناس، ويأتى بهم من قبل مايدخل إلى نفوسهم. يأتيهم من قبل ما يألفون، فإن كانوا لايألفون الدعوة الإسلامية يحاول أن يأتيهم مما يقاربها ولاينافرها، ورضى الله عن إمام الهدى على كرم الله وجهه، إذ يقول : إن للقلوب شهوات وإقبالا وإدباراً، فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمى.

ثالثاً - أن يكون شخصية نافذة لاتقتحمها الأعين، وتزدريها النفوس، وألا يكون معيباً بعيب نفسى أو خلقى، وأن يكون معروفاً بكمال الخلق، وفيه كمال سمت، يتكلم فى موضع القول، ويصمت فى موضع الصمت، ويكون صمته حكما.

ورابعاً - أن يكون أليفاً موطأ الكنف رفيقا فى المعاملة لينا من غير ضعف متواضعاً فى غير صنعة، حليما رزيناً، يتجه إلى معالى الأمور، ولا ينزل إلى سفسافها، يحسون فى حضرته بأنه منهم، يعلو بهم، فإن طار طاروا معه وإن هبط هبطوا معه.

وخامساً - يجب أن يكون عالما بالكتاب والسنة دارسا معها علم النفوس، وعادات الذين يدعوهم، ليأتيهم من قبلها غير مباعد عنها، إلا أن تكون عادات قبيحة، فإنه يعمل على تغييرها من غير تنفير، ولامباغتة، أو مهاجمة بها قبل تأليفهم نحو الحق، وجذبهم إليه، ولقد قال النبى ﷺ لمن أرسلهم للدعوة إلى الإسلام «يسروا، ولاتعسروا ، وبشروا، ولاتنفروا».

وسادسا - لايكون خصما، فلا يدخل فى خصومات مع من يدعوهم، ويكون من عباد الله تعالى الذين قال الله تعالى فيهم : «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقرا ومقاما * والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواما»[1] إلى أن قال تبارك وتعالى : «والذين لايشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كراما * والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا * والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما»[2].

---

(١) الفرقان : ٦٣ - ٧٦ (٢) الفرقان : ٧٣ - ٧٤

وسابعها – ألا يكون فى مظهرهم مخالفة للدين ولأوامره، بل يكونون قدوة لمن يدعونهم بأن تكون الدعوة بعملهم أوضح من الدعوة بأقوالهم، فإن الدعوة بالعمل توجد القدوة والأسوة وذلك أدعى إلى الاتباع من القول، ولقد كان القرآن الكريم يدعو إلى الأسوة بالنبى ﷺ، فقد قال تعالى : «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً»(١).

وثامنا – يكون بعيدا عن مواطن الشبهات، فإن إثارة الشبهات حوله تضعف قوة قوله وتوهن دعوته، وإذا وهنت الدعوة، وهنت الإجابة، ولم يجد مجيباً، وهذه الصفات إذ توافرت كان الداعى كاملا.

وإذا نقص بعضها نقص من الدعوة بمقدار النقص، ونحن نذكر الكمال وكل يسعى للوصول إليه، والقيام بحقه.

وعلى الداعى التحلى بكل ما يمكن أن يتحلى به، ومهما يكن فإنه لايصح أن يخلو من التقوى، والقيام بالواجبات الدينية، والبعد عن المعاصى، فيجتنب كبائرها، ولايظهر بصغائرها، والله هو الموفق.

مادة الدعوة

٥٣ – إن الدعوة إلى الإسلام تتكون مادتها وأدلتها مما يأتى :

أولا – العقيدة الإسلامية، وهى عقيدة الوحدانية، وبيانها من القرآن الكريم وبيان أسماء الله الحسنى أو صفات الذات العلية، كما وردت فى القرآن الكريم، من غير سلوك لطريقة علماء الكلام، ومن غير مناقشة للفلاسفة أو غيرهم، فإن المجادلة لهم فى آرائهم، تلقى بالفعل الفطرى فى متاهة يضل سالكها، ولايهتدى.

والرسالة المحمدية جزء من العقيدة الإسلامية، وتؤخذ معانى الرسالة من القرآن الكريم، الذى هو المعجزة الكبرى .

ويبين فى العقيدة الإسلامية أنها دين النبيين أجمعين، ويعرفون بهؤلاء الأنبياء كما يعرفون بالملائكة، وكما يعرفون باليوم الآخر، وما يكون فيه من حساب وعقاب وثواب.

---
(١) الأحزاب : ١٣

ويعلمونهم هذه العقيدة، كما جاء بها القرآن الكريم، ويشددون فى الإيمان بالبعث والغيب، فإن ذلك لب الإيمان، وجوهر الدين، ومن لايؤمن بالغيب والبعث لايؤمن بأى دين.

وفى الجملة يعتمد فى بيان العقيدة على القرآن وحده، وأدلته هى غذاء النفوس وشفاء القلوب.

وثانيا – الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله تعالى، وأنه أعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، ويتلى عليهم مرتلا، وتتلى عليهم آيات الإعجاز مبينة موضحة بلغاتهم، فتتلى الآية بنصها العربى، فلا قرآن إلا ما هو بالبيان العربى، وتعرف لهم معانيها، بلغاتهم ويذكرون بالله تعالى فى خلق الكون وما فيه من زرع وثمار، وسماء زينها ربها بالنجوم وما فيها من خلق الكون الذى يدل على الخالق، وكما قلنا تتلى عليهم الآيات كما نزلت، وتبين لهم معانيها بلغتهم.

إن القرآن فيه علم الدين، وفيه الأدلة، وفيه الموعظة الحسنة، فيختار من آياته ما يكتب فيه النص، ويكتب تفسيره بلغتهم على أنه ليس القرآن، بل على أنه بعض مايدل عليه.

وثالثا – السنة تختار لهم أحاديث مما يبث روح التقوى فى القلوب ويهز النفوس وتدرس لهم سيرة رسول الله ﷺ، وينبه إلى مواضع العبرة فى هذه السيرة، مما يدل على أنه صادق ولايمكن أن يكون كاذبا فى الحديث عنه.

رابعا – ذكر السيرة النبوية الطاهرة، وينبه فيها على النواحى التى تدل على الصدق والأمانة،والخلق الكريم.

خامساً – بيان الأهداف الإسلامية فى الآحاد والجماعات مما يدعو إليه الإسلام فى الكرامة الإنسانية، والعدالة فى الحكم بين الناس، والعدالة الاجتماعية والدولية، وما يدعو إليه من مساواة وحرية، وتعاون بين الناس على البر والتقوى، ونهيه عن التعاون على الإثم والعدوان، ومايدعو إليه من محو التفرقة العنصرية، وما يدعو إليه من التعاون الإنسانى.

ويبين ذلك الجزء من القول بالتفصيل والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل ؟

تم بحمد الله وتوفيقه

المحتويات

مؤلفات الإمام الشيخ

محمد أبو زهرة

العالم الجليل الذى أثرى المكتبة الفقهية بموسوعاته، والذى ستبقى ذكراه شعلة وهاجة فى العلم والفقه الإسلامى. تلك المؤلفات الخصبة التى وهبه الله سبحانه وتعالى إياها لتكون منارا يهتدى به العلماء من بعده فى دراسة الفقه الإسلامى.

١ – خاتم النبيين ﷺ (ثلاثة أجزاء فى مجلدين)
٢ – المعجزة الكبرى – القرآن الكريم
٣ – تاريخ المذاهب الإسلامية (جزءان فى مجلد واحد)
٤ – العقوبة فى الفقه الإسلامى
٥ – الجريمة فى الفقه الإسلامى
٦ – الأحوال الشخصية
٧ – أبو حنيفة – حياته وعصره – آراؤه وفقهه
٨ – مالك – حياته وعصره – آراؤه وفقهه
٩ – الشافعى – حياته وعصره – آراؤه وفقهه
١٠ – ابن حنبل – حياته وعصره – آراؤه وفقهه
١١ – الإمام زيد، حياته وعصره – آراؤه وفقهه
١٢ – ابن تيمية – حياته وعصره – آراؤه وفقهه
١٣ – ابن حزم – حياته وعصره – آراؤه وفقهه
١٤ – الإمام الصادق – حياته وعصره – آراؤه وفقهه
١٥ – أحكام التركات والمواريث
١٦ – علم أصول الفقه
١٧ – محاضرات فى الوقف
١٨ – محاضرات فى عقد الزواج وآثاره
١٩ – الدعوة إلى الإسلام
٢٠ – مقارنات الأديان
٢١ – محاضرات فى النصرانية

٢٢ – تنظيم الإسلام للمجتمع

٢٣ – فى المجتمع الإسلامى

٢٤ – الولاية على النفس

٢٥ – الملكية ونظرية العقد

٢٦ – الخطابة «أصولها . تاريخها فى أزهى عصورها عند العرب»

٢٧ – تاريخ الجدل (الذى مضى على طبعته مايقارب الخمسين عاما).

٢٨ – تنظيم الأسرة وتنظيم النسل

٢٩ – شرح قانون الوصية

٣٠ – الوحدة الإسلامية

٣١ – العلاقات الدولية فى الإسلام

٣٢ – التكافل الاجتماعى فى الإسلام

٣٣ – المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام

٣٤ – الميراث عند الجعفرية

تطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

مؤسسة

دار الفكر العربى

الإدارة : ١١ ش جواد حسنى – القاهرة

ص.ب ١٣٠